مطرٌ لشجر الذاكرة

(أوراق من سيرة عمر الطلياني)

الكتاب: **مطرٌ لشجر الذاكرة**

المؤلف: **عبداللّه عبيد**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

تصميم الغلاف: **أسماء سليمان**

لوحة الغلاف: **معاذ الحازمي**

الطبعة الأولى: **يناير/كانون الثاني 2015**

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب : ISBN 978-9948-22-586-7

الكتاب متوافر لدى معرض مدارك للنشـر والتـوزيع
الرياض، حي المحمدية، طريق الإمام سعود بن عبد العزيز

عنوان المعرض

Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates
P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من **مدارك**.

Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing

عبدالله عبيد

مطرٌ لشجر الذاكرة

(أوراق من سيرة عمر الطلياني)

الإهداء..

إلى عشيقين كنتُ الشوكة في حلقهما..
علهما يغفران لي!

(أ، هـ)

«La carne terra, e qui l´ossa mia, prive»
de´ lor begli occhi, e del leggiadro aspetto
fan fede a quel ch´i´ fu grazia nel letto
che abbracciava, e´ n che l´anima vive»

Michelangelo Buonarroti

«جسدك هي الأرض وهنا عظامي
محـــروم أنـــا بعدك مـــن العيون الوســـيمة والأثير المتبختر
بهجتي لا تزال في سريري مخلصة له
للذي عانقته وللذي تسكن الآن فيه روحي»

مايكل آنجلو بوناروتي

ذاكرة الآن.. !

احتضن الليل المدينة بعد أن أظلمتْ شـــوارع روما واختفت الشـــمس. ها أنا أقف منذ ســـاعة أمام نافورة «تريفي» أدخن ذاكرتي وأســـيل مع مياه النافورة التي لم تتوقف منذ القرن الثامن عشر، توقفت عندها قبل عشرين عامًـــا لـــم أكنْ وحدي لأرتكب حماقة كالتي ارتكبْتُها. كان ســـعيد معي يســـتفز رغبتي بالحياة ومعاندة القدر. «من يرمي قطعة نقدية في مياهها سيعود إلى روما حتى وإن ذهـــبْ» هكذا تقول الأســـطورة.. لم أكـــن أعلم أن قطعة نقدية قد تغيّر شكل الأيام ولون الذاكرة.

انتابتني رغبة عارمة في أن أعيد الكرَّة مرة أخرى، أيّ قـــدر ســـتكتبه لي هذه النافـــورة غير الموت في هذه المدينـــة التي لا تموت؟ في المـــرة الماضية فعلتها ولم أكن أنتظر شيئًا.. فعلتها لأجل اللحظة، والآن أُدْخلُ يدي فـــي جيبي وأتمنى أن تخذلني العملة المعدنية فلا أعثر

عليها، يخطفني منظر الماء الذي لا يملّ من الحركة، هل يصعد كي يهبط أم يهبط كي يصعد مرة أخرى؟

أراه في وسط الدخان، ماذا لو كنتُ نافورةً أو ماءً، أو دخانًا لسيجارة يحرقها الوقت فتحرق صاحبها؟ أخذتني الأسئلة الساذجة التي تمدّدتْ في حياتي حتى خنقتني، لم يعد الوقت يتسع لأي شيء، ولم يعد للزمان أيّ معنى غير الموت البطيء. كل ما يمكن أن أعيش لأجله انتهى، بلدي ضاعتْ في المنفى وأنا ضعتْ في داخلي. حبيبتي سهام ذهبتْ مع الريح ولحقتْ بسعيد. فجأةً انسحبتْ الحياة مني دون أن تمنحني بديلًا سوى هذا الدفتر الذي أنتقمُ فيه من كل شيء ماذا تحمل في داخلك أيها البياض؟ لا أحد سواك يتحمّل أخطائي بما فيها مجيئي إلى هذه الدنيا.. أنا الذي شغلْتُ مكان شخصٍ آخر كان يمكنُ أن يكون رجل السلام الأخير.

إنني أكتب كي أتخلص من حياتي، لا أريد أن أخرج منها محملًا بها، أريدُ أنْ أرحل عنها خفيفًا كريشة. كل ما أخذْتهُ منها كان لها وكل ما وهبتني إياهُ أيضًا كان لها، أيتها الذاكرة المثقلة بكل الأوجاع المميتة، إنني أقتلك الآن كما تقتلينني، أطعنكِ بذات السكاكين التي طعنتني بها، دمي اختلط بدمك، أنا القاتل الذي ينتقم من قاتلهِ.

اختفى البياض الكثيف وعاد السواد مجددًا ناصبًا

نفسه كإلهٍ لكل هذه الفجائع التي كتبتني. نشبتْ أظافرها الذاكــرة في عقلي وطرحتني أرضًا، هذه المرة أصبحتُ في وضعية المستسلم لها، أغمضتُ عيني شيئًا.. فشيئًا ورحلتُ إلى وراءٍ بعيييييد!!

ـ 2 ـ

وجدّتني هكــذا فجأةً مصابًا بذاكرتي كرجل يكرر حياته آلاف المرات..

ـ أووه الجو ممطر اليوم على غير العادة.. !

ـ جميل.

ـ ما بك هكذا؟

ألا يدعــو ذلك إلــى أن نخرج معًا؟ يجب أن نفرح بالمطر يا سعيد.

ـ«نفرح بالمطر؟؟

يبــدو أنكّ في ضلالك وفــي جنونك المعهود، إنه مطرٌ خفيف ثم لا يلبث أن يغيّر رأيه ويعرف أنه مخطئ وتعود تلك الشــمس التي أكرهها كالعادة، لا شــيء يدعو للفــرح هنــا، إذا أردت أن تفرح وأن ترقص تحت المطر يجــب أن تغادر هــذه المدينة وســأؤكد لك كلامي بعد اختبارات الثانوية..»!

هكذا كان دائمًا ينهي ســعيد حديثه عندما أحاول أن أقنعه بأن الفرح ممكن هنا.. فيردُّ بكل إحباط: «أنت مجنون.. أنت لا تفهم.. كم مرة علي أن أخبرك أنه لا فرح في هذه المدينة المنحوسة» ثم يحاول أن يشعل سيجارته

التـــي كان يشـــتريها ممـــا يدخره من مصروفـــه اليومي للمدرسة وكثيرًا ما كان يقسم السيجارة إلى نصفين كي يوفر قيمة ســـيجارة أخرى. كان يدخن كثيرًا ولم أســـأله يومًـــا لمـــاذا يفعلُ ذلك لكنه كان مولعًـــا ببطله المفضل «بوارو» والذي نجا من موت محققٍ بفضل سيجارة.

اقتسم سعيد معي حياتي منذ البداية، درسنا سويةً ودخلنـــا العالم من بواباته الكبـــرى دفعةً واحدة وتورطنا فيه، حتى أن المرأة التي أحبها هو أحْبَبْتُها أنا أيضًا أو العكس لا أدري من الذي احتلّ أرض الآخر، لم يكن من العدل أن يقرر خوض تجربة جديدة لوحده، لم يكن عدلًا أن يقرر أن يموت وحده.

هكـــذا ظهـــر لـــي طيف ســـعيد فجأة وبـــدون أي إرهاصات، البرد في روما يجعلنا نساير الموتى، نصافحهم ونتحدث إليهم ونشـــكو لهم، وإذا ضجرنا منهم نســـألهم مـــاذا وجدتم هناك؟ فيختفون فجأة. هكذا كان يقول لي دائمًا ســـعيد ثم ما يلبث أن يضحك ضحكة هســـتيرية» إنـــت صدقـــت؟! هههههههه.. يا أخي أنت مســـكين.. تصدق كل شـــيء!!» لقد كان محقًّا ســـعيد كنت أصدق أي شـــيء إلا خبر موته الذي لم أســـتطع احتماله عندما هاتفني الطبيب من المستشـــفى الجمهوري في القاهرة.

كان صوتهُ يندفع دون أيّ إحســـاس، لا شـــك أنه كان قد اعتاد على ذلك.. السيد عمر يوسف.. ؟

ـ نعم

ـ هل تعرف السيد. سعيد جمَّالْ؟

ـ نعم.. إنه صديقي!

ـ أتمنى أن تستطيع تحمل الخبر.

ـ ماذا؟.. ماذا حدث؟

لقـــد وجدنـــا بطاقة تضم أرقـــام هواتفك وبريدك الإليكترونـــي ومقـــر إقامتك في جيبه. هل تســـتطيع أن تدلنا على أقربائه أو أي أحد يستطيع أن يتم الإجراءات اللازمة لقد وجدناه مقتولًا، يجب أن يكون هنا شـــخص مقرب من الســـيد ســـعيد كي ننهي التحقيقات ثم نبدأ بمراسم الدفن!

ـ انتظر يا سيدي ربما هناك خطأ ما.. دفن من؟.. ومن قتل من؟ وما علاقة سعيد بكل هذا؟

ـ لقد قُتِل السيد سعيد جمّالْ!

ـ غير معقول.. أنت تكذب يا ســـيدي لا يمكن أن يموت سعيد بهذه السرعة أعرف أنه قوي إنه.. إنه لم.. لم وأغلقْتُ الهاتف ودخلْتُ في نوبة بكاء، شيء ما سقط

في داخلي وتحطم لقد فقدت نفسي! لقد كان الطريق إلى المنزل مليئًا بأطياف سعيد التي كانت تتشكل أمامي كراقصي الباليه.

في تلك الليلة الماطرة آثرت المشي، ولم أشعر بالمسافة، كان سعيد يعبث بي وكأن شيئًا لم يحدث، ما قيمة أن يفرق القدر بين عكازتين كلاهما يسند الآخر؟ كان الطريق القصير إلى منزلي يزداد طولًا كلما ازداد المطر. أحسستُ بأن أضواء السيارات ثقوب بيضاء ستنقلني إلى عدم فسيح حيث يمكن لي أن أراه إلى الأبد، لم أعلم متى وصلتُ إلى المنزل وكيف وصلتْ؟ تمددتُ على الكنبة، كل شيءٍ كان فظيعًا في تلك الليلة، قطراتُ المطر لم تكن تتكسر على النافذة بقدر انتحارها على الإسفلت، الليل كان يبدو لي أطول من اللازم، كانت الساعة حينها تشير إلى الواحدة صباحًا، عندما خطرت لي فكرة أن أكتب له، أن أجرب جنونه ولو لمرة واحدة، فقد كان يكتب رسائل كثيرة للموتى، أذكر أنه أفسد عليّ ليلة برسالة كتبها لبودلير وكان يثق بأنها ستصلهم، كان بعد أن ينتهي من الكتابة يقوم بوضع الرسالة في صندوق بني اقتناه لهذا الغرض، وفي ليلة رأس السنة يقوم بفتح الصندوق وقراءة بعض هذه الرسائل، لم أكن أعرف لماذا يفعل ذلك ولم ينتبني أي شعورٍ ولو للحظة

واحدة بأن هذه الرسائل قد تصل.. ما الذي جعلني الآن أفكر بهذه الطريقة؟ هل لأن ذهابه كان بدون مقدمات؟ هل لأن هناك كلامًا كثيرًا لم أقلهُ له بعد؟.. لم أجد نفسي إلا وأنا أمام البياض الذي يشـــبه العدم الذي ذهب إليه سعيد، لست شاعرًا مثله ولكنني أحسست بأن آخري من كان يكتب وليس أنا..

«كيف كان يمكن لي أن أرفض ارتكاب صداقة فرضها عليّ قدر لا شأن لي باقتراحه؟ وحين قرر هذا القدر بأن يمازحني.. فعل ذلك كمن أفرط في الشرب، وكان عليّ أن أتحمله.. هل يستطيع أحدنا أن يرفض قدره؟

إنـه لـم يكـن في حسـباننا يومًـا أنه نحـن اللذين اتفقنـا ذات نشـوة على مواعيد بعيـدة.. وبعيدة جدًّا بأنّ أحدنا قد يتخلى عنها.. مما سيجعله يذهب وحيدًا إلى هناك.. ما قيمة موعد مع نفسك؟!

ألـم نقـلْ: بأننا سـنذهب إلى أقصـى نقطة ممكنة بجسارة الفرسان؟

أذكر أننا ضحكنا حينها كمصابَينِ بخلل في مكان مـا عميق فـي الدماغ،لماذا أفترض بأننا مصابون ونحن فعلًا كذلك!

على الأقل أعترف بأنني ما زلت كذلك.

هـل كان يجـب أن تقـوم بتجربة جديدة وحدك كي تشعرني بفداحة غيابك؟

أعلم أنك لست مخطئًا لكنك لست مصيبًا.. أيضًا!

يـاااااااااه.. . ألهـذه الدرجة أنت قاسٍ على اللغة يا صديقي، لقد جعلتها تقف مرغمة على الحياد.

إنني أعلم يا سعيد أنك لا تحتمل الكلام المدجج بالعاطفـة لفـرط رهافتـكَ، وتتظاهر بالقـوة وأنت أوهن من عصفور!

وأعلـم أنـك تصدق خيالك أكثـر من واقعك وأعلم أنـك مفـرط فـي التجربة حـدّ اللعنة! وأعْلـمُ أنك تعْلمُ أني أعلمْ

ولكن أخبرني.. من سيستطيع أن يقترح حياة لهذا المـوت الحاصل سـواك؟ إننـا لم نفرط بالكلام أكثر من الـلازم حتـى نجرّب صمتًـا مؤلمًا كهذا. إن كمية الصمت التي بداخلي تكفي لتمرير محاضرة مملة وقصيدتين لا تفكران بالانتهاء وأغنية لا تحبها.

أتعـرف عمـق الهـوّة التي تفصل بيـن المجاز وبين المعنى؟

بيننا وبين القصيدة؟

إن كل ما سنقوم به بعد الآن سيكون محاولة فاشلة

لردم هذه الهوّة، أليس هذا محبطًا جدًّا وكفيلًا بأن أذهب لانتحارٍ فادحٍ ببسالة البطل؟أعلم أنك ستختلف معي جدًّا كعادتك وستعترض وستقول كلاما كثيرًا كي تحصل على فرصة لمغامرة أخرى.. ولكن لماذا ذهبت هكذا؟

لماذا؟».

عاد المطر المفجع مرة أخرى ولكن هذه المرة كان من الداخل.. يا الله أي وجع هذا؟.. هل يحس الميتون بوجع؟.. هل يبكون لأننا نتوجع من أجلهم؟ وضعتُ الرسالة في الصندوق البني الذي كان يضع فيه الرسائل وتمددتُ على الكنبة من جديد!

ـ 3 ـ

منـــذ مدة وأنا أضع يدي علـــى قلبي لفرط الوجع ففي كل مرة كنت أتعثّر فيها بِقَدَرٍ سكران ـأو هكذا كنت أظنـ كنتُ أصمد، ولكن هذا العبث لم يكن في الحقيقة إلا فوضى هذا العالم المسنّ الذي يقتاتنا لئلا ينتهي، أي عدلٍ هذا الذي يضعنا وحدنا في مهبّ الأسئلة؟ في مهب الضياع؟ ألم تحن لحظة الإجابة بعد؟ لماذا كلما أردنا أن نتكئ على ظل شجرة وجدنا أنفسنا في مفازة عطشى؟ لماذا كان علينا أن نتمســك بالقشـــة الأخيرة وكأننا على وشك الغرق؟ هل فقدنا كل تلك المساحة التي كنا نركض فيهـــا حتـــى بقينا نتهدج في توابيتنا كأيقونات تنتظر من يطفئهـــا؟ بينما كانت الأســـئلة تنـــال مني باغتني صوت الهاتـــف، لـــم تكن لدي الرغبة بأنْ أجيب عليه ولكنني لم أرَ سهامًا منذ مدة، مضى شهرٌ على رحيل سعيد وأنا ما زلت في عزلتي. لم ألتقِ بأحدٍ، ولم أفعل شيئًا يدعو لأن يذكر لقد كانت الصدمة أكبر من أن أســـتوعبها، ذهابه الفجائي هكذا دون إذن أفقدني الرغبة في فعل أي شيء.

ـ ألو..

ـ كيف حالك يا عمر؟

ـ بخير.. وماذا عنك؟

ـ أنـــا بخير، أردت أن أراك في آخر الأســـبوع إن أمكن، لدي موضوع مهم لك.

كانت طريقة كلامها غريبة وكأن شـــيئًا لم يحدث، وكأنها لم تفقد أحدًا كانت تحادثني وكأننا افترقنا الليلة الماضية، نبرتها الســـريعة أربكتني، كانت تهدر كشـــلال ناضـــج، صوتهـــا لم يكن عاديًّا هذه المرة، كان قادمًا من أزمنةً ســـحيقة، كانت كلماتها المعدودة تبحث عن جمرة لم تنطفئ في رمادي

ـ ولكن..

ـ بـــدون لكن أرجوك يا عمر.. عازماك يوم الأحد على الغداء في مطعم «الأنتيكا بيسا»(*).

ـ حسنًا.. ما دمتِ مصرةً فسأكون هناك في الموعد!

*****

لم أشـــعر كالعادة بأن الأيام تتمدد ولم أتذمر من هذا الشـــتاء الذي يجمد كل شـــيء حتى الوقت، شـــعور غريب ـ كان ينتابني وأنا أحصي الأيام ســـاعة ســـاعة ـ بين الفرح، والخوف، والحزن، لابد وأن آينشـــتاين عندما تحدث عن «آلة الزمن» كان يحس بما أحس به. لم أجد

(*) ANTICA PESA.

نفســـي إلا وأنـــا أنزلق نحو المطعم ولـــم أكن أعلم أنني أنزلق نحو ذاكرتي بشكل عنيف، بعض الأشياء التي نقوم بها تكون نتائجها مغايرة عما توقعناه. لم أعان كثيرًا في البحـــث عنهـــا، كانت تجلس في الزاويـــة اليمنى كعادتها تهتـــم كثيرًا بأناقتها كانتْ أجمل من أي وقتٍ رأيتها فيه، لم تنتبه لي إلا وأنا على رأس الطاولة، حاولتْ أن تنهض كي تؤدي لي التحية..

ـ أهـــلا.. عمر.. شـــو هاد كان فيـــك تكلمني إنك وصلتْ!!

ـ هههههه.. لا عادي ما بيننا هذا الشيء!

قلْتُ في نفســـي لا يمكـــن أن يمرّ هذا اليوم بدون عواصف قد تقتلع كل الأشـــجار التي بداخلي أيعقل أن تحافظ امرأةٌ على قسمات البراءة كل هذه السنين!! كيف لي أن لا أصدق أنّ الزمن في حركته الدائمة ليس له شأن بســـهام إنها في الـ 35 من عمرها وتبدو كأنها في الـ 21، إن ملامحها الآن تعيدني إلى المرة الأولى التي التقيتها فيها على عتبات كلية اللغات بروما كان ذلك في فبراير من عام 1990 كنا في السنة الرابعة من الكلية أنا وسعيد وكانت هي في سنتها الأولى، كنا نستعد لمجابهة الحياة بعزم وإصرار كبيرين لم نكن نعتقد بأن بعض المنحنيات قـــد تكلفنا قدرًا بأكمله، وفي ذلك الوقت كان كل شـــيء

فيها يصرخ بجماله، ابتســامتها الخجلى، قوامها الرشيق الذي يحاول أن يخاتل الهواء، شعرها الأسود الذي يتدلى على ظهرها كشــجرة صنوبر كثيفة وعيناها اللتان كانتا تطلقان سهامًا لا تعرف لغة سوى الفتك!

ماذا يحدث لي الآن؟ لقد أغلقْتُ أبوابي منذ مدة. لماذا تحاول رياحها الآن أن تكسر كل هذه الأبواب؟ كل هذه الأزمنة والخيالات ازدحم بها رأسي عندما سألتني:

ـ كيف حالك؟.. يبدو أن الأيام لم تنل منك!!

ـ أنا بخير لكن الأيام ليست بخير.. ولكنني بالمقابل لم أنل منها!!

لا أدري كيف اتســقتْ الجملة على لســاني، قلتها محــاولًا أن أضللها كي لا تكتشــف ارتباكي، قلتها بخبث ذكوري لا أتقنه دائمًا!

ـ ألــن تكــف عن ألاعيبك واختبائــك الدائم وراء اللغة؟

سألتكَ كي تجيبني لا أن تكلفني أن أسألك سؤالًا آخر!!

شــيء مــا كان يحدث بيننا بــدون إرادة، كلانا كان

يتفادى سهام الآخر برشاقة غزال هارب من ناب الوحش. حاولت أن أضع حدًّا لهذه البداية المربكة!

ـ هههههه ما زلت تنفعلين بسرعة كعادتك.. حسنًا أنا بخير.. هل هذا يعجبك.. ؟!

بابتسامة ارتسمت بهدوء مفتعل أجابت:

ـ نعم.. !

لـــم تكمل إجابتها حتـــى كان النادل منتصبًا فوقنا، طلبنا وكأننا أردنا التخلص منه بطلبنا لم تمنحني فرصة كي أبتدئ الحديث.. .

ـ حســـنًا يا عمر، لقد رحل ســـعيد وابتلع البحر أمواجه، بماذا تفكر؟

ـ سأتجفف!

ـ تتجفف؟؟هذا يعني أن الأيام نالت منك ولم تعد تفكر بالوصول؟

ـ هههـــه الوصـــول؟!! لقد ضحكوا علينا وقالوا لنا بأن هناك شاطئًا ما وقالوا لنا إنها ضفة أخرى لا أكثر، لقد أوهمونا بالحقيقة إلى درجة أنني عندما كنتُ صغيرًا اعتقدتُ بأنها تســـكن في بيت جارنا، وأنني أســـتطيع أن

أراهـــا وأمســـك بها، لم يكن لازمًـــا كل هذا الضياع لئلا نصل!

ـ هيه.. هيه ما بك تهذي هكذا؟ أنت لست بخير! يبدو أنني كنت مخطئةً في اعتقادي بأنك قوي وأنك..

قاطعتها: أنا آسف فعلًا يبدو أنني لست بخير، ما هو الموضوع؟

ـ مضى شـــهر كامل ولم تذهب به إلى الجامعة.. موت ســـعيد يجب أن لا يعني لك انســـحابك من الحياة بهذه الطريقة!

كنت أصوب نظراتي إلى عينيها اللتين كانتا تقولان شيئًا آخر مختلفًا.

المـــرأة كاللغة لها قدرة عجيبة على تضليل المعنى وتســـتطيع أن تكـــون في نفس الوقت المعنـــى ذاته.. ما الذي يجعل امرأة مثلها تتشـــبث برجل مثلي ســـقط في هاويـــة الزمن الســـحيقة؟ باغتنا صوت المغنية «داليدا» مما جعلني أخاف من عواصفها أكثر فأكثر:

Comme à un rocher, comme à un pêché
Je suis accrochée à toi
Je suis fatiguée, je suis épuisée

ـ أتدريـــن؟ داليـــدا كانت محقـــة فيما فعلته، لقد

انتقمــتْ مــن هذا الوجود كما ينبغي، التفّتْ عليه قبل أن يلتــفّ عليهــا، أدركته قبل أن يدركها، لقد كتبتْ رســالةً صغيرة قبل أن تطفئ شــموعها للمرة الأخيرة وتنام إلى الأبد، كانت ســطرًا واحدًا فقط: «سامحني يا اللّه فهذا الوجود لا يطاق»! ســعيد قبل سفره الأخير إلى القاهرة كان يكرر كثيرًا هذه الرســالة.. لكنه لم يطفئ شــموعه بنفســه وإنما أطفأها أولئك الظلاميون الذين بذل لهم حياته كي يشعلها ولكن عقولهم مغلقة لا يمكن لأي أحد أن يفتحها!

ـ من الذي أغلقها وأضاع المفتاح؟!

ـ لا أدري.. إن اللّه لم يخلق عقولًا مغلقة، هم الذين أغلقوها على أنفسهم، لقد رأيتِ بنفسك موضع الطعنة، طعنــوهُ فــي ظهره لأنهم جبناء لا يســتطيعون مواجهته. منــذ مدة وهو يطلــب منهم أن يواجهوه الحجة بالحجة، والبرهــان بالبرهان.. والآن واجهوه الحياة بالموت، النور بالظــلام.. باللّه عليك ما الذي يدفعنا للحياة بعد هذا؟ لا.. وتقوليــن: موته يجب أن لا يعني لك انســحابك من الحياة بهذه الطريقة!

كانــت نيــران ســهام تخمد وبــدتْ وكأنهــا تميل للصمت،ســكوتها الناطق كان رفضًا لما قلته كانت تقاوم

عواصفي بسكوتها، حاولت أن أكسر جدار الصمت الذي بدا محرجًا لكلينا قلت لها:

ـ هل تعرفين ماذا يقول مجنونك الذي كنت مهووسة به أيام الجامعة (سارتر)؟

ـ ماذا؟

ـ «الصمت حالة من حالات الكلام».

ـ أها.. إذا يفترض بك أن تعرف ما أريد!

ـ يفترض بك أن تفصحي عما تريدين لا أن تختبئ في مكان ما داخلك!

يجب أن أذهب الآن، أراك في الجامعة غدًا.. !

عندما غادرتُ المطعم لم أكن أتوقع أن جملتي الأخيرة ستجعل نيرانها تمتد إلى أن تحرقني، أكبر عذاب لمن يشعل الحرائق هو أن يحترق بأحدها لا أدري لمَ خطر في بالي عدد النساء اللواتي أحرقتهنّ.. كنت أبحث فيهن عني.. لم أكن أبحث عن أي شيء آخر، كلنا يولد ضائعًا ويجب عليه أن يجد نفسه في حضن امرأة. عندما وصلْتُ إلى البناية التي أسكن بها كانت سماء روما قد قررت البكاء، كل المارة في الشارع غطسوا داخل معاطفهم وغطست أنا في كهفي.

_ 4 _

شيء ما كان يعتم فيّ كل يوم؛ حتى أنّ العم بيدالبي حارس البناية لاحظ ذلك واستوقفني ذات ليلة قبل أن أنسلَّ من أسئلته نحو شقتي: «ما بك يا بني؟ ليلك بدأ يصبح أطول من المعتاد وشمسك تخلف مواعيدها كثيرًا؟» كان صوته الذي كف عن النمو منذ أمد بعيدٍ يحفر في داخلي. لم أستطع الإجابة ولم أعرف ما أقول، كان يعرف أن الحروف إذا ازدحمت بحلقي تقتلني ولا تخرج، كان يقرأ ملامحي زمنًا فزمنًا. تنهد تنهيدة وسألني:

«أخباره الشاب الذي كان يأتي إليك دائمًا سعيد؟ لم أره منذ مدة؟».

لا أدري لماذا كلما حاولنا أن ننسى تنبثق الذاكرة أمامنا كشبح لا يموت! رفعتُ رأسي تجاه البناية، وربّتُ على كتفه، واندفعتُ نحو شقتي بعد أن فضحتني عيناي. كان موجعًا أن يعرف العم بيدالبي برحيل سعيد متأخرًا وهو الذي يعرفنا منذ 15 عامًا منذ أيام الدراسة الجامعية.

عندما عدت إلى روما بعد وفاة أمي، كانت حياتي غير قادرة على أن تقف على قدمين، لا أعرف من أين يبتدئ الطريق، كان كل ما أريده هو أن أخرج من تلك الصحراء التي تدعى الوطن، كنت بحاجة إلى جذع أستند

إليه. طيلة حياة أمي لم أشعر بنقص من فقدوا آبائهم مبكرًا ولكن الآن أحسست بأن من لا يملك أمًّا فقد خذلته الحياة، أمي التي غاب صوتها عني في الشهر الأخير كانت تقول لي: «الواحد لما يتعبْ يا ولدي ياقعْ محله محد شيدري به» كانت تحس بأنها تنسحب عن الحياة، لم أفهم ماذا كانت تقصد إلا الآن. عندما كنت في الطائرة بدأت أشك في رفض أمي للحديث معي؛ لأنها حتى عندما تغضب تتحدثُ معي ولكن ما الذي يمنعها هذه المرة؟ همس في أذني هاجس: «لقد رحلتْ إلى الأبد يا عمر.. رحلتْ هل تفهم؟» أحسستُ بأن السماء تنقبض في داخلي وبقيت للحظات خارج الحياة وكأنني في غيبوبة، حاولت أن أطرد هذا الهاجس بقراءة كتاب أهدتني إياه سهام، لم أستطع أن أكمل الصفحة الثانية منه حتى بللتِ الصفحة قطرات دموعي. لم أستطع أن أقاوم رغبتي في البكاء، كلما اقتربت الطائرة من الوصول إلى مطار جدة كان قلبي يزداد توجّعًا، ماذا إن لم أجدها في المطار؟ سيقولون لي: لأنها كبيرة في السن ومريضة فضلنا أن تنتظرك في جازان.. حاولتُ أن أصدق خيالاتي ومسحت دموعي، كنت آخر من نزل من الطائرة إلى مطار جدة، عندما لم أجد أمي بحثت عنها في عينيّ عمي صالح وعمتيّ رضيّة فلم أجدها، لم يكن هناك وقت

للفــرح، ولم أتقبل تبريراتهما بإخفاء الأمر عني وعندما وصلنا إلى جازان كان أول شيء قمتُ به هو ذهابي إلى المقبــرة القديمة حيث ترقد هناك عرضتُ عليها وثيقة تخرجي..

ـ «يــا ولداه.. ها جيتوك.. ولْدك تخرج يا ولْدَاهْ.. عمــوري قديه رجل يا ولْــدَاهْ» ودخلتُ في نوبة بكاء إلى أن أغمــي علــي. أمي رحلت دون أن أعلم وأبي رحل دون أن أعي. لماذا تفطمنا الحياة هكذا؟

كانــت جازان تتغير شــيئًا فشــيئًا، بعض الأحياء أصبحتْ أكبر مما هي عليه، وبعض البنايات بدأتْ تندفن جــراء الأرض الملحية وكان البحر قد انســحب كثيرًا.. الأصدقــاء القدامــى لم يعودوا كما هم، البعض تخطفته الحياة ولم يعد له أثر ســوى في ذاكرة حارتنا، والبعض اختارت له الأقدار شريكة حياته، ولم يحتج إلى الوقوف كثيــرًا علــى باب الحظ، ملعب كرة القــدم الذي احتمل أقدامنا الصغيرة بقي كما هو رغم كل المحاولات الجادة لتغيير ملامحه، الســوق الداخلي ظل صامدًا هو الآخر بأزقته الكثيرة، وبتشعباته التي تؤدي إلى نفسها، عندما كنتُ أمشي داخلهُ تعرّفت على بعض الوجوه، والبعض لم أستطع تذكرها، أكثر ما بحثتُ عنه كان «مجنون امسوق» الذي كنا نزعجه عندما كنا صغارًا، كانت قصته غامضةً

جدًّا مجنون شـــبه عاقل، هكذا كان يبدو لا أحد يعرفه، نام الجميع ذات ليلة واستيقظوا صباحًا ووجدوا «مجنون امسوق» يحمل أطواقًا من الفل يحصيها ويلبسها، ثم يعود يحصيها مرة أخرى، كان يرتدي سروالًا أبيضَ فقط، ولكنه مع الأيام أصبح بنّيًا مُشْرِعًا باقي جسده لتحولات الأيام، لم يكن يشغله عن الفل إلا ذهابه إلى الحمام والأكل وكثيرًا ما كان يصرخ في لحظة تشـــبه لحظة النشوى «صديقي ولْدَ امْشـــعْبي.. مدري فِيّنْ وشّعْبي(*)». كان البعض يقول بأنه مصاب بالسحر والبعض كان يقول: «إن شيخ الجن تلبسه ولم يستطع الخروج منه فلذا هو يعيش في النهار في عالم الإنس وفي الليل في عالم الجن» ترى أين أنت الآن أيها المجنون العاقل؟ أصبحتْ جازان مدينة مصابة بفقدان الذاكرة، رغم أنها كانت غير قادرة على النسيان، كانت باتســـاعها تتكمش على نفســـها، وكلما زادت بناية واحدة فيها انطفأتْ شمعة فيها. احتجتْ لوقت طويل لكي أستوعب ما يحدث، في تلك الفترة كنتُ أحتاج إلى حضن أبكـــي عليه وعـــادةً ما كنتُ أذهب إلـــى البحر وبحوزتي صورة أبي الذي ابتلعه البحر في رحلة صيد عندما كان عمري أربعة أعوام، أســـتطيع بعد مضي أربعة عقود أن أتذكـــر رائحته البحريـــة. الآن أصبحت أذهب إلى البحر

(*) صديقي ابن الشعبي لا أدري إلى أين أودى بي.

وبحوزتي صورة أبي وأمي، لا شـــيء مثل البحر يســـتطيع أن يحتمل أوجاعنـــا. المحرومون، الموجوعون، الفقراء، العشـــاق كلهم يذهبون إلى البحر، وحده البحر لا يطلب منا مقابلًا كي نشـــكو له آلامنا ولا يبوح لأي شـــخص، ما عمر وجعك أيها البحر!؟ هكذا كنت أفعل كلما أحسستُ بالفقـــد منـــذ أن أنقذني العـــم بيدالبي من ثلج روما كان ذلك في فبراير من عام 1992 كنت قد اســـتنفدت كل ما في جيبي من النقود، واستســـلمت للجوع، وتمددت على إحـــدى محطات القطار، لم أســـتطع أن أعرف ما الذي حدث لي إلا عندما أفقتُ وأنا على سرير العم بيدالبي، عطفه وحنانه علي جعلاني لا أتوقف عن الحديث، قلتُ له كل شيء واندفعتُ أسرد له الوجع كنهرٍ لا نهاية له..

ـ لا أدري ماذا أفعل الآن، أمي ماتتْ بسكتةٍ قلبية، ولم تســـتطع أن تنتظر خبر تخرجي من الجامعة، والكل أخفى عني ذلك وعمي صالح قرر قطع النفقة عنّي ما لم أعد للســـعودية للعمل في الصحيفة التي يرأسها، أحتاج لعملٍ في هذا المكان لا أريد العودة لذلك الموت، أن لا أملك شيئًا، وأتنفس كما أريد أحب إليّ من أن أملك كل شـــيء، وأموت اختناقًا، إن بقيتُ هناك فلن أســـتطيع أن أستمر في الركض، قبل عام من الآن قتلوا شاعرًا لأنهم أوّلـــوا كتاباتـــه كما يريدون، أقاموا عليه الحد؛ بحجة أنه

عادى اللّه، لقد هربتُ من قبر كبير ولا يمكن لي أن أعود لـــه. كان العم بيدالبي يخفي ابتســـامة عميقة في عينيه اختلطتْ بدهشة ارتسمتْ على وجهه، أي عناد أحمله في رأسي يجعلني أتشبث بالحياة إلى هذه الدرجة؟ أطلَّ في الأرض لدقيقة وداهمني:

ـ أعتقد أنك قلتَ لي إن معدلك عال في الجامعة أليس كذلك؟

ـ نعم ترتيبي كان الثاني على الدفعة.

ـ أعد نفسك جيدًا غدًا سنذهب إلى الجامعة التي تخرجتَ منها وسأجد لك وظيفة هناك ربما تعمل مدرسًا هناك وتكمل دراستك إن أردت.. اتفقنا؟

أحســـستُ بضوء ما يتســـرب إلى داخلـــي ببرودة عجيبة.. تمتمت بكلمات لا أتذكرها وقلت.. اتفقنا.

_ 5 _

أحسُّ الآن وكأني عدتُ كثيرًا للوراء، لحظة الدخول على الدكتور أنطونيو هي ذات اللحظة الآن، كيف سأخبره بأن رحيل سعيد الفادح جعلني أنكفئ على نفسي؟ كيف سأدخل عليه وهذه المرة لا عكاز يسندني سوى الريح؟ كثيرًا ما تكون إخفاقاتنا سببًا موجعًا لاستحضار الأسئلة الأولى التي كلما ازددنا ابتعادًا عن التفكير بها وجدنا أنفسنا نقترب منها حتى لكأن الـ (هنا) هناك والـ (هناك) هنا، إننا نعود لأوجاعنا القديمة بحجم الفجائع التي تنتابنا بين حين وآخر، كلما خطف طائر الموت أحدهم سنتألم ونحن نسأل:

ما جدوى وجودنا إذا كنا سنرحل هكذا بدون موعد مسبق؟

وكلما تجهمت الحياة بوجهنا سنوغل في السؤال عن جدوى الحياة.

عندما اقتربت من الكلية ازدحم رأسي بسهام وبالدكتور أنطونيو، كانت سهام تنتظرني عند البوابة كشمس فجائية، القبعة التي كانت تضعها جعلت حدود شعرها الطويل ملتبسة، جسدها الذي كان يختصرُ الفصول الأربعة كلها في لحظة واحدة اختبأ خلف معطف

مــن الصوف، نظارتها الطبية التي وضعتْ للإغراء أكثر من أي شــيء آخر.. لم أســتطع أن أفهم ما الذي يحدث لي.. أيعقل أن أكون مراهقًا إلى هذه اللحظة؟ لا يمكن.. ما ســرّ هذا النور الذي يشــع من داخلها؟ هل هي النار السلام التي احترق بها سعيد؟

ـ أهلًا عمر.. صباح الخير.. لم تتأخر عن موعدك يبدو أنك اقتنعتَ سريعًا.. يااااه كم أنا عظيمة!!

ـ أنــا أحتــرم مواعيدي دائمًــا، ثم إنك لم تعطني فرصة لكي أحدد قراري، بديكتاتوريتك المعهودة حددتِ كل شــيء فمــاذا أفعل؟ لم أكن أملك قــرارًا آخر، قطع جدالنا صوت لورا الفتاة الشــاعرة الجميلة التي تدرس في السنة الأخيرة..

ـ دكتور عمر، لا يعقل!! توقعت أنك تركتنا وانتقلت بدون أن تخبرنا؛ لقد انقطعت أخبارك عنا فجأة، سألت الدكتور أنطونيو عنك كثيرًا ولم يجب.

ـ هــا قد عادت أخبــاري لكم الآن لا داعي للقلق سأدخل على الدكتور أنطونيو بنفسي أراك لاحقًا. حاولت أن أمســك بيد ســهام ولكنني تفاجأت بأنني أقبض على لا شيء اختفت سهام وتركتني وحدي، ولكن لماذا فعلتْ ذلك؟ حاولْتُ أن أتخيل وضعية الدكتور أنطونيو.. يحتسي

قهوتــه ويقــرأ صحف الصباح، لا إنــه يتحدث مع أحد أعضــاء التدريس.. لا يهــم، لم أفق من خيالاتي إلا وأنا أمام اليافطة التي التصق بها اســمه منذ عشــرين سنة، قبــل أن أعــود إلى الوراء كنت أقــف مقابلًا لمكتبه مما سمح له بأن يراني وقبل أن أفعل شيئًا ابتدأ اللحظة:

ـ pronto omar.. come stai, uomo.

ـ أهلًا دكتور أنطونيو أنا الآن على ما يرام!

ـ ماذا تقصد بما يرام؟ ما ســبب غيابك كل هذه المدة وأنت الذي لم تفعلها طيلة 15 عامًا؟

ـ سعيد يا دكتور.. لقد رحل سعيد وتركني وحدي في مهب الضياع، لا أعلم كيف سأكمل هذا الطريق دونه، أنت تعلم ماذا يعني لي سعيد!

ـ آآه عزائي لك يا سيد عمر، كلنا سيرحل في يومه عن هذه الحياة ولكن يجب على هذه الحياة أن تستمر، في المرات القادمة ســتضطر إلى أن تمشي روحك منفصلة عن جسدك! في هذه اللحظة جاء صوت الهاتف موقفًا طوفان السيد أنطونيو منقذًا لي منه، ومغرقًا رأسي في كومة من التســاؤلات الوجودية، لقــد مات ابنه الصغير ذو الأربعة أعوام، هشــمت رأسه شــاحنة لماذا كل هذا يا الله؟ لماذا تنطفئ كل هذه الكواكب دون أي ســبب؟

ولماذا أشعلتها إذن؟ كيف لي أن أفهم هذه الفوضى التي تنهش لحم هذا العالم؟ ماذا يعني أن يتهشّـــم رأس طفل صغيرٍ لا ذنب له؟ وأن يقتل سعيد الذي قضى عمره كي يخلصك من محتكريك؟ إني لا أحتمل هذا يا الله!

****

ظِلال الأوجه الهاربة

«حبيبتي سهام أيها القدر المستحيل.. أيّ حظٍّ هذا الذي يتقاذفنا كنردٍ تعيس؟ لقد كانتْ لياليّ مظلمة جدًّا، وعندما رأيتُ فيكِ الصباح ركضتْ إليك كممسوس، لقد خرجتِ من وراء السحاب كي تضيئي لي بدلًا من هذا العجوز المعلق في السماء، لكن غيمة ما جعلتْ ظلام ليلي يمتد، ويمتد، ورغم ذلك شيء ما بداخلي يجعلني أثق بالصباح. حبيبتي سهام لقد أخذتِ الحياة مجرًى آخر ولم يعد لنا أن نعلّق آمالنا إلا على مشاجب الريح. أحبك.. هل تكفي هذه الكلمة لتغير قدرٍ يفلق الصخر؟ لا أملك قلبًا أقسمه إلى نصفين ولا أستطيع التخلي عن جزء منه، لأني أحبكِ وأحبُ سعيد يجب عليك أن تكوني زوجته، وأن لا يعلم بحبنا؛ أن أبوح بحبك يعني أن أفقد سعيد إلى الأبد، وأن أنكر ذلك يعني أنني أطعن نفسي وأبعث الحرائق في حدائقك. لقد بنيت أحلامًا كثيرة لنا حبيبتي وها هي الآن تتكسر شيئًا فشيئًا. حبيبتي

سهام حتى وإن أخذتك الأيام مني فإنك تسكنين داخلي أنت قلب الحياة ومحورها. لا أدري هل هذه آخر مرة أناديك بها «حبيبتي» أشعر أنها ليست الأخيرة. أنت الآن صديقتي، لم تكوني حبيبتي إلا لأنك كنتِ صديقتي. سأبتلع الآن حبي ولن أهبه لأي أنثى أخرى، سفني لا تعرف غير بحرك، ولا شاطئ سواك يستحق الوصول، ها أنا الآن أطوي هذه الورقة لتفتحي صفحتك البيضاء، أعرف أنك لن تَجْرُئي على نسياني كما أنني لن أستطيع! النسيان أحد فخاخ الذاكرة. قبل أن تنهي هذه الرسالة ضميها إلى قلبك كي تحسي حرارة قلبي.

حررت في 1994/2/11

حبيبك المكلوم/صديقك: عمر»

جرفني سيل الذاكرة كما لو أنني كنت عشبة في مجرى الوادي، كانت ليلة من إحدى ليالي فبراير الباردة، بينما كنت أبحث في مكتبتي عن كتاب يمنح الليل معنى غير البرد، سقطت الرسالة من الدفتر الذي يضم نسخًا من الرسائل التي كتبتها منذ أتيتُ إلى إيطاليا، لم أكن مهيأً لأنجرف لهذه الدرجة المخيفة، لقد سقطْتُ في هاوية الوراء، ولا سبيل لأن أتقدم خطوة واحدة دون المرور بمحطات منسية، لقد كانت الحياة دائمًا طريقًا مستقيمًا متى أصبحت دائرية لهذا الحد!؟ ما يمكن أن يحدث بالصدفة يمكن جدًّا أن يكون غير هذا. لطالما

سببتْ لي هذه المفردة ارتباكًا شديدًا، ماذا تعني الصدفة غير حدث غامضٍ لا نعرف سببه،أو قدرٍ التبستْ عليه الحيل فتواطأ مع اللغة على هذا اللفظ الملغوم، كل ما يحدث لنا ولا نعرف سببه سنسميه صدفة، الحب صدفة، اللقاء صدفة، الموت صدفة، الحياة صدفة، نحن لسنا إلا صدفة كبيرة لا معنى لها. ها أنا الآن أنجرف مع السيل، لا غصن أتعلق به يعيدني إليّ، ولا أرى النهاية. قلبت أوراقي بسرعة، ردها على هذه الرسالة بالذات كان أشبه باستهلال لا خاتمة له،ضياعًا عميقًا لأجل الضياع، سؤالًا يترهل بالإجابة كنهرٍ لا يستطيع التوقف ولا يعرف إلى أين يسير..

«حبيبي ها أنت تعلن أن شمعتنا ستظل مشتعلة إلى الأبد، رغم هذا الليل الطويل، أنا وأنتَ نشترك في نفس المحنة، معضلتنا الأكبر هي أننا لا نقوى على خدش زجاجة، ولا نحتملُ مظهر الدم. لم تستطعْ أن تُحطمَ قلبًا ولنْ أستطيع. سحبتَني معكَ أو سحبتُكَ معي، أحدنا جرّ الآخر لهذه اللعبة، ولا يهم أنا أم أنت. لا سفينة سواكَ ستصل إلى شاطئي، سأنتظرك رغم كل شيء يا عمر

حرر في 13/2/1994

طفلتك الحمقاء: سهام»

انتهيتُ من الرسالة وواصلتُ انجرافي مع السيل مستسلمًا تمامًا لهذه الذاكرة. فعندما قرر قلبي أن يرتمي في الحبّ كان قلب سعيد هو الآخر قد قرر ذلك، شيءٌ ما تغير فينا، تحولتْ جهة الكلام من الفلسفة والسياسة والشؤون الثقافية إلى الأمور العاطفية، كلانا كان يحس بأن الآخر وقع فريسة للحب ولكنه كان يخفي على الآخر، كنتُ قادرًا على أن أخفي الكثير من الأمور عليه ولكنني لم أكن لأصمد فترات طويلة، بعكسه هو الذي كان يندلق في حضرتي كما لو أنني هو، لم أكن قادرًا على أن أكون عاريًا أمامه لهذه الدرجة، ولكنه وحده من كان يستطيع قراءتي بوضوح نادر، إلا أنه أضاع الحروف هذه المرة، دائمًا ما كنتُ كالأوراق المشرعة لسعيد كما كان هو بالنسبة لي، حاولتُ أن أتظاهر بالفرح وألا أفسد فرحتهُ عندما دخل عليّ:

ـ بدل أن تكون فرحًا بأن صديقك سيرتبط بالمرأة التي أَحَبّهَا وأنْ تقترح عليه «البذلة» التي سيلبسها في الزفاف أصابتك حمّى القراءة.. ألست فرحًا لي يا عمر؟!!

اهتزت تفاحة آدم وابتلعْتُ غصتي وافتعلتُ ابتسامة صفراء..

ـ أيها الأحمق، كيف لا أكون سعيدًا وأنت سترتبط بسهام؟ ألا تتذكر كيف كنتُ أحرص على مواعيدك

معها أكثر منك، لكن ما يحزنني هو أنها ستأخذك مني، سيصبح سريركَ هذا فارغًا، ولن أقول لأحد في الليل: «اللّه يلعنك أنت ومولاك أحمد التوني هذا» سأفتقد الدرويش وسأفتقد لذة شعرك أتدري.. ؟ أنا لا أقرأ شِعركَ، وإنما أقرأ اللحظة التي نزفتَ فيها.. أعرف ما تعانيه أثناء الكتابة، ولا تستطيع أن تنكر أني أحفظ شعرك أكثر منك، وألقيه أفضل منك، شعرك الذي تتكّرَ له وطنك، شعرك هذا الذي جرّك من أذنيك إلى المنفى وجرني معك، شِعرك الذي ورّطنا بالحياة أكثر من اللازم وجعلنا نتشبث بها بأسناننا..

«وحدك ستقف عند

ارتطام العتمة بالعتمة

مثل قمر رضيع لا ينام!

سوف تنبثق أنثاك

من وجع ناعمٍ كالسماء

و تعبرك نهرًا، فنهرا»

ها أنا الآن وحدي بلا أنثى لكنني أنتظر انبثاقها الأخير.. هنيئًا لك يا سعيد لقد وجدتَ أنثاك!!

ـ «كف عن هذا الهراء، أنت الذي تتجنب العواصف

دائمًـــا، تحتـــاج إلى زلزال عنيف يعيد بعث الخراب الذي بداخلك، ثم إن ارتباكك في الأشهر الأخيرة يجعلني أثق بأن هناك سارية خلف الجبل ستقتحم معسكراتك، وهذه الرجفة التي تعتريك ليســـت إلا فجاءة المدينة بالزلزال» كانت كلماته تهزّني هزًّا.. تقف الكلمة على حافة لساني ثم تخاف السقوط، تتشبث بالشفة السفلى خوفًا من الهاوية، أحزاننا العظيمة كانت بسبب كلمة كل هذه الحروب، وكل هذه الدماء وكل هذه القلوب المحطمة كانت بسبب كلمة ظلّتْ تسقط أكثر من 70 خريفًا وأسقطتنا معها.

لم أســـتطع في حياتي أن أكســـر قلبٍ شخصٍ ما، أنا الذي كنتُ أبصر قلبي يتهشم عند المنعطفات الأشد حدّةً في حياتي، كان قراري بأن أستمر بحبٍّ سهام قرارًا لا شـــأن لي باتخاذه، تشـــبثتُ بحبها كمن يتشبث بالحياة الخطأ، كنتُ أدرك أنه لا فكاك من سهام سوى بالابتعاد عن كل الطرق التي تؤدي لها ولكن هذا يعني أن أبتعد عن الطرق التي تؤدي لســـعيد أيضًا، كان ذلك مستحيلًا، لم أكن أعتقد في يوم من الأيام أن تضطرني الحياة لأن ألعب دور البيدق المضطر، وكأنني حجر على رقعة شـــطرنج ضخمة لا أدري من الذي يحرك أحجارها، مضى الوقتُ بنا، وجرّتْ السنينُ بعضها؛ لأجدني الآن أتذكر ما حدث لا لأعرف لماذا حدث هذا، وإنما كي أعرف كيف حدث

كل هــذا.. نجحت مرارًا في التملص من دعوات ســعيد لتناول الغداء معه هو وسهام ولكنني وجدتني وجهًا لوجه مع ما كنت أرفضه في إحدى أيام يناير الباردة كان هذا في عام 1996 لم أستطع أن أجد ثقبًا أنسل منه أو عذرًا أمتطيه، حاصرني ســعيد من كل الجهات فاستســلمتُ، كنتُ حريصًا على أن لا يحس ســعيد بأي شــيء يربك علاقتهُ المربكة بسهام، تأنقتُ للموعد وانطلقتُ تاليًا كل الأدعية والصلوات التي أعرفها كي لا يحدث أي شــيء يفســد اللقاء لم يأخذًا وقتًا طويلًا التاكسي الذي أقلني إلى «الأنتيكا بيســا» كان ســعيد وسهام قد سبقاني إلى الطاولة مما ســبّب لي إرباكًا، شــعرتُ بالعرق الذي بدأ يلتمــع في جبهتي رغم شــتاء روما البارد، تفاديت الأمر ودفعتُ كل عبارات الاعتذار التي أعرفها..

ـ عفــوًا تأخــرتُ عليكم.. أنا آســف لم يكن الأمر بيدي!

سعيد استقبلني بضحكة وسهام كانت تبتسم وهي تخفي ما أعلم بداخلها.

ـ لا عليك يا رجل.. تأخرتَ 10 دقائق وكنت أغفر لــك تأخــرك لأكثر من ســاعة أيام الجامعــة هههههه هههههههه وننطلق في ضحكنا الذي يفجره سعيد بعفويته وانســيابه الهادئ، إلا أن الصمت الذي كان يتمدد أثناء

تناولنا للطعام كان يجعلنا أنا وسهام نتحدث بأعيننا دون أن ينتبه سـعيد، لم أعتقد أنها قد تفاجئني وتلقي الكرة في ملعبي بهذه الطريقة.. إنه مكر النساء ولؤمهم.. ألقتِ السؤال كمن يلقي بجمرة في صدري..

ـ لو سألتك يا سعيد هل يمكن أن تتخلى عني بأي شكل من الأشكال؟

كانـت تقول سـعيد وتقصدني بسـؤالها، لم أبتلع اللقمة، كانت حجرًا عالقًا في حلقي، احتجتُ للماء لكي يتدحرج هذا الحجر، وبرهافته المعتادة أجاب سعيد.. «لا يمكن لي أن أتخلى عنك مهما حدث يا حبيبي ولا توجد قوة تسـتطيع أن تبعدني عنك»، ثم قبّل يدها.. أحسستُ بأن شـيئًا ما يخمشُ صدري بعنف. نجحت بالانسـحاب منهم ولكن سهام كانت قد نجحتْ في إثارة أسود الغيرة التـي كنت أعتقـد أني أروّضهـا جيدًا.. فعلتها سـهام وتركتني أبحث عن جواب لسـؤالها «هل يمكن أن يتخلى عاشـق عن عشيقته بأي حال من الأحوال؟». كان الوقت معطـلاً تمامًا، العقارب التي تلتصق ببعضها تسـتفزُّني جدًّا، أصبحتْ الساعة كسنةٍ ملقاة على ظهري، أي حبٍّ هـذا الـذي يطعن الصداقة في خاصرتهـا؟ لقد تركتُ أرض الحـب الناقـص خلفي، الحـب في بلدي لا يكتمل أبدًا إما أن يُشنق مبكرًا أو ينتحر بنفسه.

كان جارنا عبد المولى صاحب البقالة يحب صفية التـــي كانت تســـكن في آخر الحـــارة، كان حبهما صامتًا جدًّا، ومشتعلًا، يدسّ لها رسالة مع طفل صغير، فتخبئ له قلبها بين جناحي عصفورٍ خائف، اســـتمرا فترة على هذه الحالة، وعندما وشتْ بهما الجدران قطعوا يده قبل أن يطرق بابها، وطعنوهما بكل ســـكاكين الكلام، وتمادى بهم الأمر إلى أن جلدوه أمام الناس في السوق؛ كي يكون عبرة وآية لمن تسوّل له نفسه أن يستسلم لأقدس شعور فـــي الحياة.. الحب، كان عبـــد المولى هزيلًا لم يحتمل وقع السوط عليه وهتاف الناس، كان صوت تلك القلوب القاسية عليه أشد ألمًا من السوط الذي كان ينهال على ظهره، لم ينتظر كثيرًا حتى يوقع حضوره الأخير باسمها «أحبك.. صفية» معلنًا انطفاء جسده، ساد الساحة صمت ولـــم يعـــلُ صوت على صوت الحب، بلغ صفية الخبر، لم تجـــد مـــا يجبرها على البقاء فغـــادرت الحياة في نفس اليوم منتحرة بســـم الفئران، آآهٍ ما أكثر روميو وجولييت في بلادي.

_ 2 _

كان إســحاق النادل الصومالي يراقبني دائمًا كلما ارتدتُ مطعم «الأنتيكا بيســا»، لم يكن يحتاج إلى موهبة عالية ليكتشــف جثة تخفي قلبًا مثقوبًا داخلها وحدائق لا تعرف شــكل الشــمس، ليلًا حالكًا يرتدي معطفًا.. لا يتحدث كثيرًا يأكل طبقهُ الإســباغيتي يوميًّا، وينســحبُ بخفة ضباب، حدث هذا مراتٍ، ولم أكن أشــعر أن ثمة عينًا تراقبني، إلا أن وحش الفضول كاد يفترس إسحاق الذي لم يحتمل غرابتي كما أخبرني لاحقًا.. لحق بي إلى خارج المطعم واستأذنني في مرافقتي. لم أجد سببًا كي أمنعــه ولــم أجد معنى بأن أرفض رفيقًا ولكن رفيقًا إلى أين؟.. لم يترك لي فرصة بأن أفكر، بدا لطيفًا بابتسامته التي ارتسمتْ بتلقائية لم أعتدها أنا الذي افتعلتُ حياتي كلها افتعالًا. سحَبَنا مقهى من قسوة المطر وجوع الطريق، تــرى ما طعــم قهوة تَعقدُ اتفاقًا بين غريبين؟ مرّةٌ كحبٍّ لن يكتمل؟ أم حلوة كطفولة أبدية؟ داهمني إسحاق ولم يمنح القهوة فرصة كي تتحدث:

ـ أخبرني يا أستاذ عمر.. ما الذي حدث؟

تفاجــأتُ لمعرفته باســمي ثم ماذا يريد أن يعرف

هذا النادل الذي لم أعرف اسمهُ إلى الآن، غريبٌ يعرفني ولا أعرفه، هل هي أحجية أخرى!

ـ وتعرف اسمي أيضًا؟ يا.. .

ـ إســحاق.. إســحاق محمد.. صومالــيٌّ معجبٌ بمقالاتك الأســبوعية في «القدس العربي».. يدهشــني تشــبثك بالحياة، وإيمانــك الكبير بالحب جعلني أراقبك في المطعم، وجهك يبدو عنوانًا للموت وســيجارتك هذه التي لا أدري من الذي يسحبها أنت أم هي، تبدو انسحابًا أكيــدًا بعكس مقالاتك اعذرني على تطفلي يا ســيدي.. ولكنني أطمح بأن أساعدك!

ـ مــاذا تريد يا إســحاق هل بالضــرورة أن أكون نسخة مما أكتب؟

أجبتهُ بانفعال شــديد، كان صوتي يخترق الدخان المنبعــث من ســيجارتي بكثافة.. «لا أريــد أن أزعجك ولكنني واثق بأنك لست بخير يا أستاذ عمر».

أي غريبٍ هذا الذي يخاف عليّ أكثر مني.. تنهدتُ بعمق وجعي الكبير وبقيت أهدر كمذياع خشبي قديم:

ـكل شــيءٍ فيّ تعوّد على الألــم، أصبحْتُ كمدينة ميتة، هاجر سكانها إلى جهة الريح، لقد تعبْتُ حتى ملّني التعبُ، لم يعد هنالك ما أخشاهُ، عشتُ بما يكفي في عنق

الزجاجة، وعندما أوشكْتُ على الخروج منها تمسّكْتُ بي جيدًا كي لا أسقط في قاعها، حبي الوحيد انقسم على ثلاثة.. رجلان يعشقان امرأةً تعشقُ رجلين.. أي لغز هذا الذي كُتِبَ علي حلّه.. ؟

ـ فقط؟.. هل هذا سببٌ لأن تصبح تعيسًا لهذه الدرجة.. مازال في العمر متسع يا رجل!

ـ مضى الكثير منه، وأنْ أفكّر بشيء ما جديّ سيكون جنونًا كجنون المراهقين وأنا لم أعد أحتمل ذلك، أحمل قلبي بيدي وأخشى أن يسقط إن بالغت في الركض!

ـ ألا توجد أنثى استطاعت لملمة خراب كاتبٍ متعبٍ جدًّا مثلك؟!!

لم تكن ذاكرتي تحتاج لمطر فجائيٍ كهذا، أنا الذي فقدتُ الثقة بكل شيء بقصيدة لم تكتب، بوطن يفتش عن وطن، لماذا كنتُ أنا وحدي المستثنى من الاحتمال؟ ترى لو كنت رجلا بسيطًا يذهب إلى دائرته الحكومية في الصباح، ويعود بالجرائد كي يجعلها سفرة للطعام، هل كان سيكون قدري معقدًا مثلما هو الآن؟ لقد التفتُّ متأخرا جدًّا كي أعرف كم المسافة التي قطعتها لنفسي

وكم تبقى للوصول، أجبتهُ بانكسار شديد، وبصوت انتهتْ صلاحيته..

ـكل الطـــرق التي ســـلكتُها كانت تؤدّي لشـــخص يشـــبهني لكنه ليس أنا!! كلما لوّحْتُ للمرآة كان يســـخر مني ويلوّحُ لي بطريقة معاكسة!!

أي أنثى تلملمُ هذا القلب الذي لم يعد صالحًا لأي شيء يا إسحاق؟ إنني أراقب الوقت فحسب، هذه الحياة كانت بسبب أنثى، وهذا القلب الذي أصبح أثقل من أي شيءٍ عبثت به أنثى مستحيلة، منحته كل شيء في لحظة وانســـحبتْ كموجة، كان حلمًا طويلًا لا تفســـره اللغة ولا الكتابة، حلمٌ وُجِدَ ليكون حلمًا لا أكثر، لقد كانوا يقولون لنا: «احلموا.. الحلم ببلاش» لم يعلموا بأن بعض الأحلام تختصر المسافة إلى الجحيم.. إنني أعترف أمامك الآن، أنـــا كاتـــب يكذب! يزين لكم الحياة لكي تتبعوه إلى نفس الجحيـــم، كل المعارك التي انتصرت فيها.. لم أخضها! بدا إســـحاق مندهشًـــا وحاول أن يلملـــم بعض الكلمات الهاربة كي يقاوم طوفان الألم الذي يهدر أمامه..

ـ لكن يا أستاذ عمر نستطيع أن نمزق الصفحات التـــي اهتـــرأتْ، ونبـــدأ الكتابة من جديد، هـــا أنا الآن كتـــاب آخـــر مختلف عن الكتاب القديم، لماذا تستســـلم بهذه الســـرعة؟ امرأتي التهمها ســـمك القرش وأنا أرى

في سـواحل عدن كما التهمتْ أسـماك أخرى رفاقنا في الرحلة، كانت السـفينة التي أتتْ بنا من الصومال على وشـك الغرق، لم يكن لنا إلا أن نجدف بأيدينا، سـفن النجاة امتلأتْ وبقي الكثير منتظرًا مصيره، البعض مات وهو ينتظر الموت، والبعض مات خوفًا من الموت، عندما وصلـتُ إلى عدن لم يكن هنـاك وقتٌ لكي أبكي، أجّلْتُ أحزانـي وابتلعتهـا مثل مياه البحـر المالحة التي كانت تتسلل إلى رئتي وأنا أسابق أسماك القرش، كنتُ أجري في شـواطئ عـدن؛ خوفًا من العسـكر الذين يترقبوننا كـي يعيدونا مرة أخـرى، كانتْ أرضًا لا أعرفها، لم أكن أعرف بماذا أفكر، بجوعي الذي تحول إلى ألم شـديد؟ أم بقلبي الذي كان يؤلمني أيضًا، وذاكرتي التي تجمدتْ بدم «فرحية» الذي ضرّجَ البحر باحمراره؟ مضى أسبوع كامل وأنا أتوسّـدُ رصيفًا أو ألوذ بظل سـيارة، كنتُ آخر من ينام في المدينة وأول من توقظه الشـمس، لم تلتمع فـي ذهنـي فكرة أن أبحث عن عمـل أرمم به يومي، كل الطرق كانتْ ستسـلمني للمـوت لولا أنني وجدتُ مكتب الأمم المتحدة وسـلمتُ نفسي هناك، كان طريقًا طويلًا قطعتهُ إلى هنا يا أستاذ عمر، فقدتُ كل شيء، أتيتُ إلى رومـا جثـة من الذاكرة فقط ورغم ذلك ما زلتُ أثق بأن القشة قادرة على إنقاذي.

إسحاق جعلني مشدوهًا، أنا الذي كنت أظن عندما وزع الرب التعاسة بأنهُ خصني بالنصيب الأكبر. رغم كل هذه الخسارات ومازال يستطيع شراء الحياة وكأن شيئًا لم يحدث. مددْتُ يدي وأشعلت سيجارةً أخرى لأرى كيف سينتهي هذا اللقاء الذي أصبح تراشقًا متقنًا بالأوجاع..

ـ ولكنك لا تملك جهةً تذهبُ إليها ولسْتَ مطالبًا بشـــيءٍ بعكســـي أنا الذي أملك وطنًا لا يصلح لشيء إننا كلما وهبناهُ الحياة مات!!

أنـــت لم تذهب لوجعك بنفســـك ولـــم تنتخبه، أنا ذهبتُ له بصدر عارٍ وبيدين مشرعتين، وقلتُ له: تقدم، أنت طرقت البابَ، وأنا كسرتهُ،

لـــم تكن لـــك حيلة لكي تقاومه بعكســـي أنا الذي حاولتُ أن أصارعه إلى النهاية.. قاطعني إسحاق بسرعة كمـــن يوجـــهُ برقًا لعيني ويصمت.. لكنك لم تمتْ ما زلْتَ حيًّـــا وحقك يجب أن تأخذه من الحياة.. تأخذهُ عنوة إن لم يكن برضاها!!

ـ لـــم أمتْ!! يبدو أنك لم تســـتوعب أنني تأكدتُ بأنِّـــي جثّـــةٌ لا أعرف كيف نجحَتْ في تقمّص دور الحياة التي تزعمها. انطفأتْ أصواتنا وابتلع كلٌّ أوجاعه، وطوّقَ الصمتُ المبهم دخان سجائرنا المنفعلة.

ـ 3ـ

كان قطـــار العمر قد قطع مســـافة من الصعب أن أســـتدير بعدها وأصغي إلى أي نداء يحاول أن يجرّني، لكنها ســـهام وحدها من قَدَّ قميصي من الخلف، وحدها مـــن جعلـــت القطار يتجمـــد في مكانه، جمّـــدت الوقت والذاكرة، انحرف كل شـــيء فيّ عن مســـاره وتدحرجتُ نحوها بعنف شديد.

كنتُ منقادًا لقدميّ اللتين كانتا تبحثان عن طريق لا يؤدي إلى هاوية جديدة، عندما ظهر لي في عمق المطر جســـر «ميلفيان» لا أدري لماذا تذكرتُ في هذه اللحظة أقفال العشـــاق التي يضعها العشـــاق على جنباته وكأنهم يقفلـــون علـــى حبهم إلى الأبد، بينمـــا يبتلع نهر «التيبر» مفاتيـــح الأقفال، لقد كنت أمضي كثيرًا بجانب الجســـر طيلـــة الأعـــوام الماضية دون أن أحـــدق في القفل الذي طبعتُ عليه أول حرف من اســـمي واســـم سهام، انتابني فضـــول لأرى هـــل أنا من ثبّـــتَ الذاكرة في مكان ما؟ أم أنني مازلت غارقًا في تهوامٍ لا قرار له!!؟

كانـــت الســـيارات تلتهـــم الطريق الـــذي لا ينتهي، كل ســـيارة تلتهم بطريقتهـــا، البعض بالعجلات، والبعض بالأضـــواء، والبعـــض بالعجلات والأضـــواء وأنا أجرني

في هذا الزحام متفاديًا الاختناق، أطارد الأسـئلة ووجه سـهام الذي يتراءى لي كلما انكسـر المطر على جسـر «ميلفيان»، انتابت المدينة ارتعاشة فجائية بسبب الرعد العنيف الذي كان يمزق سـماء روما، أغمضتُ عينيّ ولم أفتحهمـا إلا أمـام الأقفال المعلقة، يا اللّه هل هنا تُعلّقُ أقدارُ العشـاق!! ظللتُ لفترة أتأملها، على اليمين تظهر مجموعة من الأقفال الملونة يبدو أنها تخصُّ عشاقًا جددًا، وهناك في الأسفل أقفال اهترأتْ بفعل الصدأ إلا أنها ما زالتْ تقاوم بعنادٍ يشـبه عناد القدر، وهناك في الأعلى أقفال معلقة وكأنها تعلن أبديتها، وإن هي سقطتْ فإنها لم تسـتطع أن تتشـبثَ بالحياة، انزلقتْ عيني إلى أعلى اليسـار.. إنه لم يسـقط ما زال معلقًا في نفس المكان.. أحسستُ بأن قلبي سيخرج من محله وأنّ شعوبًا ركضَتْ لوهلة في داخلي ما زال حفري بالمسـمار O+S=LOVE يبدو واضحًا تحسستُ القفل كمن يتحسسُ سنينًا مضتْ، عندمـا كنـتُ أمد يدي نحوه كنـتُ أمد يدي إلى ما قبل 12 عامًا، كان ذلك في شـتاء 1993 بعدما اعتقدت أنني نجوتُ من البحر، كان البحر يهبني أمواجه كي أسـتغرق فـي الذهاب بعيدًا ثم يباغتني بالغرق، لقد كنت «أتنفس تحت الماء» بينما كنت أغرق.. أغرق بشكل أشد عنفًا من «نزار قباني» كان الوقت يحنو علينا ويمنحنا فرصة أخيرة

لتعديل القدر، لكننا وقفنا على حافة الأماني البيض ولم نجرؤ على لمسها، كنا أشد ارتباكًا وخوفًا من عصفورين لحظة المطر. كانت يدي تنساب على شعرها كقوس كمان وأصابعي تفتش في خصلاتها عن مفتتح لموسيقى تليق بهذا الحب..

ـ لماذا تعبثُ بشـــعري دائمًا هكذا.. كانت تقولها بغنج لذيذ يختصر كلّ أنوثة الدنيا وأجيبها بخبثي كالعادة لأزيد من ارتباكها..

ـ هل تغارين من شعرك؟

ـ لاااا.

وتنفعل انفعالها الطفولي البريء فأسرق منها قبلة فجائية تمنحنا قشعريرة الفرح..

ـحبيبتـــي هـــل ســـتذهبين له غدًا؟ ثـــم يأخذها الصمْـــتُ الموارب تاركةً إياي أغرق في جحيم الســـؤال، تلتصق عيناي بالسقف بينما تندفع لصدري وتلتصق بي

ـ «ما بكَ هكذا.. ؟ قلتُ لكَ: إن قلبي لكَ وحدكَ أنتَ ولكنكَ لا تريد أن تجرح صديقك فوضعتنا، في قدرٍ مبهم لا يؤدي إلى أي ضفة أخرى».

كنتُ أريد أن أصرخ بها كفّي، لكني ابتلعْتُ شـــعوبًا

من الصراخ وحضنتها بشدة. كانت يدانا تفتّشُ عن الثمرة الحرام، كان عطر مايكل آنجلو الذي يلفُّ جسدها من كل الجهـــات يغريني بالغرق في انحناءاتها وتلمّس تعاريجها كمن يبحث عن خلل في «ليدا والتم»(*) كنت أتحسســـها كمـــا كان يفعـــل ذلك الطائر وكانت تقربني لها كما قربتْ «ليدا» الطائر منها، كانت شـــفتاي اللتان تتسلقان عنقها تبحث عن مســـتقر يشـــعل الحرائق عن أقصاها، آهاتها التي تباغت اللحظة كانت ترتشـــق بمكان عميقٍ فيّ قبل أن تلامس سمعي لينتفض بي كلّ ما بي، لم يصل لساني إلى لسانها، هكذا إنما اقتادته الرغبة التي استعرتْ في جســـدينا، كانت شفاهنا تتعارك بينما فصول «فيفالدي» تشهق في زوايا الغرفة، كانت حِدّة الكمان تذهب بنا إلى أقاصينا البعيدة فكلما انفعلت الســـيمفونية انفعلنا أكثر، لم يمض الوقت الكثير حتى كنا تخلصنا من أرديتنا كمن يتخلص من الدنيا كلها.. أنتِ لي صح؟.. شش أغلق فمك.. ونغرق في قبلة قبل أن ينتظم إيقاعنا ثانيةً، كنت انقضُّ على نهديها كطفل معترضٍ على الفطام أنا الذي فقدتُ أمي دون أن تمنحني الحياة فرصة الوداع الأخير. وقفتُ على عتباتها وتراجعتُ، كانت سهام مدينةً مشرعةً للغزو،

(*) إحـدى الأعمـال المدهشـة التـي أنجزها مايكل أنجلـو ضاعت لوحتها الأصلية.

وكنت الجيش المتردد لكن ســهام أحسّــتْ بي فتقدمتُ شــيئًا فشــيئًا إلى أن احتللتها عن رضًا، كانت صرخات الألم الممزوجة باللذة توقظ الأماكن الدفينة فينا التي لم تمسسها الحياة من قبل، ارتفعتْ حِدّة الكمنجات وارتفعتْ حدة أصواتنا في إضافة نسيها «فيفالدي» إلى أن اكتملت الجملة الموسيقية وانطفأت النيران التي اشتعلتْ دون أن ننتبه لها، فدخلَتْ في إغفاءة تكملُ بها الفصل الأخير من اللذة، كنت أتأملها وأبحث عن المنحنيات التي لم تصلها عرباتي، عن الأزقة المليئة بحزن الشــرق، عن الحارات القديمــة، والحدائــق التي مات بها الزهر، عن العشــاق الذيــن ابتلعوا عشــقهم ومضوا به تحــت التراب.. قطع ذهابي البعيد تحرك ســهام وتحسسها لأعشاب صدري وابتســامتها التي انعكســتْ علي.. يا لكَ من مجنون إنني أشــعر وكأنني ولدتُ من جديد، إنك أول رجل يصل إلى أقصــاي يــا حبيبي لكم تمنيتُ ذلك كثيرًا.. كانت الدموع قد بدأتْ تتوج عينيها.. ضممتها لي..

ـ أنتِ أيضًا كنتِ مدهشــةً وشــهية. ماذا ستقولين لسعيد، لقد ذهبنا إلى نقطة بعيدة..

ـ أووه دعنا من ســعيد ســأقول له إنني فعلتها بنفسي وسيصدقني دعنا الآن أنا لم أشبع منك..

لم أدعها تكمل جملتها إلا وكان كلانا يعتصر الآخر،

ويبحث عن جنتهِ التي تركها في مكان ما في السماء، عندما غادرتها منتصف الليل كنا قد أشبعنا كل ثقوب الرغبة فينا لم تحسّ بي وأنا أنسلُّ من جسدها وأغلق الباب ورائي، لأن النوم كان قد أخذها إلى مدنه البعيدة.

أمكنة الماضي المؤجلة

قررتِ السماء البكاء بشدة؛ لفرط تمزقها من الألم الذي تسـببهُ سياطُ الرعد فغطيتُ رأسي وأغمدتُ يدي في جيب معطفي الأسـود ومضيت، هنا الكل معتادٌ على المطر، تصطك غيمةٌ بأخرى ويصبح الأفق الشاسع سقفًا كبيرًا فتتبلل الأرض، ليجد المطر منافذ يكمل منها دورته الطبيعية دون أي تعقيد، بعكس بلادنا حيث يصبح المطر مفقودًا، يصبح نقمة شديدة أكثر من كونه نعمة ننتظرها، أجدادنا الذين ذهبوا للأندلس ابتكروا طرقًا للتعامل مع المطر ونسـوا بلادهم وهكذا تفعـل كل العقول العربية تذهب لتبدع في الخارج بينما تبقى أوطانها قاب قوسين من الانهيار، أيعقل أن لا يكفُّ هذا الشـرق البائس عن طـرد عباقرته؟ أخذتني الأفكار وطيف سـهام كان يلوّح خلـف الغيمة التي جفّتْ فوق رأسـي وأنا أقطع طرقات روما مشـيًّا على قدميّ، إذ قطعتُ جزءًا كبيرًا من الفيا

فرانسيسكو كريسبي(*) قبل أن أجدني في أحضان الفيا سيستينا(**) عندما وصلت إلى نهاية الشارع انتابتني فكرة مجنونة، أن اندفن في إحدى غرف هوتيل سيستينا، وأن أتفادى جنون ســهام؛ إذ إنني لو لم أجب على مكالماتها قد تداهمني بسكني، كانت الساعة حينها تشير للسابعة مســاءً، بــدأتُ بتصفح إيميلي الذي لــم أقترب منه منذ انسحاب سعيد من الحياة وانسحاب جزءٍ كبيرٍ مني معهُ، وبينما كنتُ أتفادى الإعلانات المزعجة ورسائل الأصدقاء من أغلب الدول العربية التي تعزيني في سعيد، ظهرتْ لي رسالة خالية من العنوان وتبدو أنها من مجهول، توجّسْتُ في فتحها، تناولتُ ســيجارة وأشعلتها ثم فتحتُ الرسالة لأرى أسطرًا قليلة كتبتْ بالخط الداكن:

«**أســتاذ عمــر قطعًــا لا تعرفني، ولكنّــي أعرفك من كتاباتــك وأعــرف صديقك ســعيد أيضًا.. أعلم أنه لديك ما تشغل به وقتك بدلًا من قراءة هذه الرسالة.. ولكنني ســأكون فرحًــا جــدًّا في حــال ردك علي.. مــا أعنيه ملف مرفق.. تحاياي.. مازن**» ترى من يكون مازن هذا؟ وماذا يريدُ؟ توجهتُ نحو النافذة، بينما بجعاتُ تشايكوفســكي كانت تتفادى الغرق في هذه الليلة، ترى على من سيكون

(*) Via Francesco Crispy.

(**) Via Sistina.

الدور؟ كيف ســأتحمل الغرق في هذه المرة؟ لماذا عليّ دائمًــا أن أكــون البجعة التي تغرق؟ لماذا عليّ أن أواجه الحظوظ المقلوبة والأقدار الملتبسة؟ عدتُ للإيميل من جديــد وفتحت الملف المرفق وكنتُ قد تخلصت من كل شــيء يمكن أن يشــوّش علي رسالة مازن، بدت الحروف لوهلــة وكأنها تخصّني غامضة ومضرجة بألوان أعرفها جيدًا.. كنتُ قادرًا على الوصول إلى الروائح الملحية وأن أتحســس السباخ لم يقطع تركيزي سوى السيجارة التي أحرقــتْ طرف معطفي، أطفأتها ولم أتوانَ عن إشــعال ســيجارة أخرى أكمل بها هذا اللغز الذي انفتح عليّ من جهة أعرفها جيدًا، لكنني لستُ قادرًا على الإمساك بها.. كانت رائحة القهر منذ السطور الأولى..

«**لــم يعــد فــي الحياة متّســعٌ؛ فقد أصبــح الازدحام وشــيكًا ويجــب أن تتخلــى الســفينة عــن أحــد ركابها كي تستمر، وإلا سنكون معرضين للخذلان في عرض البحر**».

قــرأتُ الملف كاملًا إلى قرابة الفجر، كانت رواية مأســاوية وغارقة بالوجع لكنها كانــت تعنيني تمامًا؛ لم يســتطع البطل أن يرتبط بحبيبته لأنه كان فاجرًا بنظر أهلها، ولم يســتطع أن يكمل حياته لأنه لم يســتطع أن يتخلى عن مبادئه التي عاش لها، والتي نظّر لها كثيرًا.. «**وقفــت الحيــاة كلهــا بوجهــه**» كما قال مازن ســالم في

روايته «العزلة السوداء» «**وابتلعته في ثقوبها الغامضة**». لم ألْتفتْ للهاتف الذي كان غارقًا بالمكالمات التي لم يُردّ عليها، خمس عشرة مكالمة لسهام، ورسالتان.. «لماذا لا تجيب علي؟».

و«هل أنت بخير؟» أرسلتُ رسالة جافّة لكنها كانت مضرجة بمكر رجولي خالص، لم تتجاوز رسالتي الكلمة الواحدة «بخير». وحاولت أن أندفن إلا أن مكالمة سهام عطلتْ خططي التي رسمتها للهروب، ترددتُ في الإجابة عليها لكنني فعلتُ، كانت صامتة والحق أنها نجحتْ في إرباكي، حاولت أن أنتقي الكلام، ولكنني كنتُ هشًّا وغبيًا.. لم تسمح لي بالحديث، أنهتِ المكالمة، حاولتُ الاتصال بها، لكنها كانت قد أغلقت الهاتف وأمسكتْ بخيوط اللعبة بعد أن كانت في يدي، لقد تبادلنا دور القطة والفأر دون اتفاق مسبق. إننا وبعد مضي كل هذه السنوات لم يُشفَ أحدنا من الآخر، لم يتغير نزقنا القديم ولم تَنْتَبْنا الحكمة، شيءٌ ما فيّ كان يندلع بشكل رهيب كما لم يحدث في حياتي من قبل، لكنني كنت أحاول قمعه والقضاء عليه بشتى الطرق، وبكل قسوة ممكنة، إلا أنه كان ينبثق بطرق أخرى لا أعرفها، حبٌّ كهذا كان علي أن أنتظره الانتظار كله وهو بجواري وكان عليه أن يظل بجانبي دون أن يقترب خطوة واحدة، لم نتفق على

الانتظار، لكن الأمل الذي ولد فيما بيننا كان من الصعب أن تغتالهُ الأيام المرة، كان من الصعب أن تجهز عليه ريح القدر القاسية، لقد كنتُ قادرًا على أن أواصل السير في اللحظات الأشد ظلمة لأنه كان يضيءُ لي، هل حان الوقت الذي يجب فيه أن أستريح من هذه الألغاز التي تمدّ لي الطريق كلما أردتُ الوصول؟ لماذا كان علي أن أفتح بابًا جديدًا كلما أغلقتُ بابًا آخر!!؟ مضت الليلة ولا أعرف كيف انتهت، لم أكن أشعر بالوقت ولم أكن أدركه، لكنني كنتُ أريد له أن يمضي، أن يركض دون توقف وألا يتعثر في اللحظة الخاطئة، أسلمتُ مفاتيح الغرفة للاستقبال والتقطتُ أقرب الطرق لكي أصل إلى القبو الذي يلم شتاتي كله، كان المطر يهطل بشدة وكأنه يريد أن يهطل للمرة الأخيرة، عندما تخلصتُ من معطفي كنتُ كمن يتخلص عن جثة أخرى، أعددتُ القهوة كي أتماسك جيدًا وتوزع نظري بين الهاتف والسيجارة، وآخر ديوانٍ شعري كتبهُ سعيد «**جوع في مخيلة الفضة**» كان هذا العمل الذي أجهده كثيرًا، لقد مزق العديد من الأوراق، وحذف الكثير من القصائد، وأعاد كتابة قصيدتين من جديد، وعندما حاول صحفيٌّ أن يسأله عن كل هذه القسوة كانت ابتسامةٌ غامضة تتسلق وجهه.. «يجب على الشاعر أن يكون جريئًا ويتفادى الثرثرة، إن الخطابات

الرنانة والبيانات السـقيمة هي التي أعادتنا للوراء، إنني أقيس الشـاعر بقدرته على أن يمسـك بالعالم في جملة واحدة، أن يقبض على اللحظة ولا أريد شيئًا آخر».

حضـرتُ حفل توقيع ديوان سـعيد متأخرًا، وكنتُ أجلـس في المقاعـد الخلفية راصدًا فرحـه الطفوليّ ودهشته بالمعجبين والمعجبات، وبأسئلة الصحفيين التي كان راضيًـا عنها، لم يحدث شـيءٌ مثيـرٌ في تلك الليلة إلا أن الفتاة الشـقراء لورا تلميذته أطالت الحديث معه، مما سـبب ربكة وانزعاجًا بسـيطًا من الحاضرين الذين كانوا يريدون توقيع سعيد، كانت تمسك بيده مما لا يدع للشك في نواياها، مضى الموقف ولم يحمله سعيد معه خارج القاعة بينما حملته أنا في ذاكرتي، أخذتُ الكتاب معي ووضعته بجانب السرير أغلقتُ الهاتف ووضعته فوق الكتاب، واستسلمتُ للتعب الذي كان قد تمكن مني جيدًا.

****

في الثامن عشـر من فبراير 2005 قررتُ أن أدوّن كل الألغاز التي نجحتُ بحلها في حياتي، وتلك التي ظلّتْ تُدلدلُ لي لسانها دون أن أستطيع مد يدي لقطعها، كنتُ أدرك أن عملًا كهذا سيكون اعترافًا ضمنيًّا بأنني لم أعد أهاجـم الحيـاة كما كنتُ أفعل، لـم أتردد في الغرق في البياض، كانت شاشـة الحاسوب تنادي الطفولة التي لم

أكتبها في حياتي من قبل، حاولتُ أن أطل على طفولتي التي حملتها معي هنا إلى روما بقراراتي التي لم أتصرف بها يومًا ما كراشدٍ، فها أنا ما زلتُ أفضل المشي حافيًا كما كنت أفعل عندما كنت صغيرًا، كنا عندما نلعب كرة القدم نلعب حفاة ونضع أحذيتنا المطاطية الكحلية والخضراء القاتمة كحدود للمرمى، ونفترض قوائم وعارضةً في مخيلتنا التي كانت أغلى ما نملك، كلما ارتفعت الكرة قليلًا عن يد الحارس قلنا إنها ارتفعت عن المرمى، ولن يحتسب الهدف وعندما يحل الظلام، نرتدي أحذيتنا دون مقدرة على التعرف عليها، فكان من الطبيعي أن يكتشف أحدنا في اليوم التالي أنه أخذة فردة كحلية وأخرى خضراء مما يجعلنا نضحك على بعضنا البعض ونطلق السخريات المعتادة «أنت ما تشوف.. أعمى، خَلِّي بُوكْ يركب لك كشّاف في صُمّتَكْ»(*) لم يكن من السهل جدًّا أن أجد بأن عدّاد الأيام قد ذهب بي بعيدًا عن تلك اللحظات التي كانت تنتظرنا فيه الضحكة في الحارة الأخرى، كنا نفرح كثيرًا بموسم اللوز، نثبّتُ علاقة ملابس في طرف أنبوبٍ تالف للمياه وننطلق بعد صلاة العصر بحثًا عن المنازل التي تحوي أشجار اللوز، فكان البعض يراقب سيد المنزل والآخر يقوم بقطف اللوز من

(*) أنت لا ترى.. أعمى يجب أن يضع لك أبوك في جبهتك مصباحًا.

الشـــجرة، وكان الذي يراقب يصرخ «هييه اللّه يلعنكن.. ام قندول حقي ولا أوشّع بُكُنّ»(*) وكان ذلك يستمر طيلة فترة الموسم، وكنا كثيرًا ما نهرب إذا اكتشف أمرنا وسط لعنات من صاحب المنزل الذي تقع في فنائه الشـــجرة، لـــم تكـــن بهجتنا صعبة جدًّا، كان يكفي أن تكون ذا قيمة بيـــن أصدقائك؛ فقط لأنك تســـتطيع ترقيص «امدوام» على يدك وفي الأرض وكأنّك لاعب سيرك محترف، كنتُ مثل باقي أصدقائي أحب هذه الألعاب، إلا ســـعيد فكان قليلًا ما يشاركنا إياها مما جعله غير ماهرٍ بها وبالتالي عرضةً للســـخرية الدائمة والانعزال، كنتُ الوحيد الذي لا يســـخر من ســـعيد، مما جعله يرتاح لي، ففي إحدى المـــرات عندما كنـــا قادمين من مدرســـة «علي بن أبي طالـــب» ظهرًا قال لي: «هل أريك شـــيئًا شـــريطة أن لا تخبر به أحدًا»، فتلهّفتُ لكي أعرف ماذا يريد أن يريني سعيد، وبعد أن أخذ مني كل المواثيق والعهود أخرج من جيبـــه خاتمًـــا من الفضة كالذي كنت أراه في يد أقربائي دائمًا، كان ينتظر أن تلوح على وجهي أمارات الدهشـــة، ولكنني أعترف الآن بأنني خذلته في تلك اللحظة دون أن أعرف ما المدهش في الأمر قائلًا: «عشـــان دا خليتاني أحلف!! اللّه يلعنك» تشـــاتمنا لحظتها، فوصفني ســـعيد

(*) اللّه يلعنكم اللوز الناضج لي وإلا أوديتُ بكم!!.

بالغبي الذي لا يعرف شيئًا ونعتّهُ بالمتخلف الأبله، كلانا مضى في طريق غير التي كان يسلكها الآخر نكاية به، عندما عدتُ إلى المنزل في الظهر وحاولتُ استعادة خاتم سعيد في رأسي، أمضيتُ طيلة وجبة الغداء وأنا أفكّرُ بسر ذلك الخاتم الذي جعلني أقدم كل تلك المواثيق، لماذا استعجلتُ في ردة فعلي؟ كان عليّ أن أنتظر ماذا لدى سعيد وخصوصًا أنّهُ بالنسبة لي كاللغز الذي بدا يتكشّفُ وإن لم ينكشف الآن فلن ينكشف لي إلى الأبد، ذهبتُ إلى أمام منزله بعد صلاة العصر وناديته مرتين، وكأنه كان يتوقّع مجيئي فقد كان عند النافذة «سعيد.. سعيد.. يلا انزل وجيب معاك اللي وريتاني اليوم الظهر» لم يعترض سعيد ولم يقل كلمة واحدة، انزلق بسرعة كبيرة في درج منزلهم وصافحني وانتهى خلافنا لم نكن نعرف معنى الحقد أو الكراهية.. ذهبنا إلى البحر؛ كي لا يرانا أحد من الأولاد ويفسد علينا موضوعنا.. اشترط عليّ سعيد أن أعزمه على آيسكريم الحجة آمنة، الذي كان بطعم التوت المثلج فوافقت، كنا في مواجهة البحر عندما أخرج لي سعيد الخاتم مرة أخرى، كنت أراه بشكل آخر أمسكت به وتفحصته جيدًا كي أحاول فك اللغز، ولكنني كنت أشير برأسي بأنني لم أستطع معرفة شيء.. أخذ مني سعيد الخاتم وقال لي: ماذا ستفعل لو أخبرتك

أننـــي وجـــدت هذا الخاتم في المـــكان الذي كان يجلس فيه «مجنون امســـوق»؟ وقد رأيته ذات يوم يقبلّه بشـــدة، وعندمـــا أخذتُ الخاتم منـــه دون معرفته اختفى مجنون امســـوق!! بدأ اللغز يصعب شـــيئًا فشيئًا أكمل سعيد: لم أخبر أحدًا بذلك غيرك وقد ســـمعتُ كبار الحي يقولون «إن العـــم ناجـــي في حارة الجبل هو أعلـــم الناس بهذه الأمور وقد قيل إنه ساحرٌ ما رأيك أن نذهب له ونعرف ما حقيقة هذا الخاتم فربما هو من أحد الكنوز القديمة أو هـــو خاتـــم لا معنى له؟» تردّدتُ قليلًا ولكنني لم أجد مانعًـــا من الانزلاق في المتاهـــات التي يريد أن يجرفنا لها سعيد.

في عودتنا من البحر ســـلكنا شـــارع اليرموك، ثم التقطنا شارع فيصل يمينًا تخفينا بين الحارات والأزقة إلى أن اخترقنا السوق الداخلي الذي يكثر فيه باعة الملابس والمجوهـــرات والحاجيات اليومية، كنا قد وصلنا لحظة الغروب بالكاد كنا اســـتجمعنا أنفاســـنا، دخلنا على العم ناجي الذي لم نقابله في البدء، وإنما أشـــار إلينا خادمه الحبشي إدريس بأن ننتظره في غرفة الجلوس ريثما ينزل من الطابق الثاني، كانت الغرفة مفروشة بالحصير وكانت الجدران غير مطلية، أبصرتُ الوزغ اللعين الذي أتشاءم منـــه فـــي اليوم الذي أراه كبيرًا ومنتفخًا يتســـلق الجدار

قرب النافذة الكبيرة، زاد ارتباكي وزاد العرق الذي يفرزه جسمي، بينما سعيد كان يقلب الخاتم وتبدو على وجهه جدية كنا نفسرها بشيء آخر نحن صبية الحي.. عندما هممتُ بأن أنبس بحرفٍ واحد داهمنا صوت العم ناجي أو الشيخ ناجي كما يناديه الكبار في الحي

ـ «السلام عليكم.. كيفكنّ يا جِهّلة»؟

بخير يا عم ناجي.. نطقناها سويًّا وكلانا يبتلع ريقه؛ إذ إن الغرابات التي تحاك عن العم ناجي كانت تجعلنا نخافه ونجلّه أحيانًا عندما يقنعنا أحدٌ ما بأن هذه كرامات، فيُحكى أنه في إحدى الليالي كان عائدًا إلى منزله واعترضه كلبٌ أسودُ كبير يخافه أهل الحي كثيرًا لكنه توقف وتبادلا النظرات الحادة.. كان الكلب يزبدُ، وكان العم ناجي يقف كتمثال جامد في وجه الكلب، ثم برك على ركبه واقترب منه الكلب، وبدأ كأنه يُسرُّ للعم ناجي بشيء ثم لم يسمع الراوي ما قاله العم ناجي للكلب فهرب الكلب بسرعة ولم يره أحد منذ تلك اللحظة، ويحكى أنه سافر إلى مكة وعاد في ساعة واحدة.. اتهموه بالدجل والشعوذة وقال عنه آخرون: «بأنه وليٌّ من أوليائه الصالحين والعارفين به»، عندما جلس لم تكن تفارقه سبحته البيضاء وابتسامته الواسعة التي لا توحي بأن هذا الرجل مشعوذ، أو دجال، أمر بإحضار عصير بارد

يهدئ من ارتباكنا، سألنا عن دراستنا، وعن أهلنا وعما نريد، فأخرج سعيد الخاتم وهو يرتجف، وقدمه للشيخ ناجي الذي تفحصه لبرهة، وسألنا: «من أين أتيتم به؟».. وكمن يدفع تهمة عن نفسه: «واللّه مش أنا يا عم ناجي واللّه هو.. واللّه هو» ابتسمَ وقال: «لا تخافوا أخبروني كل شيء». ابتلع سعيد ريقه، وانطلق يسرد بصوت مرتجف بأنه سرقهُ من مجنون امسوق، فتغير وجه العم ناجي، ورمى الخاتم في وجه سعيد، وطردنا من منزله وقبل أن نخرج نادانا فعدنا له ونحن يملؤنا الرعب، فأخذ الخاتم ونظر له مرة أخرى، وأغمض عينيه قليلًا، ثم طلب من خادمه إدريس أن يأتي له بطبق من الماء وبالبخور، كانت ركبنا تصطك وكدتُ أن أتبول على نفسي وكنتُ في داخلي ألعن سعيد على هذه الورطة، لم يتأخر إدريس حتى أتى بما طلبه منه سيده، لفّ العم ناجي الخاتم بقطع من الشال الأخضر، وغمسه ثلاث مرات في الماء المبخر وتلا أشياء لم نستطع معرفتها، ثم قال لنا: «إن قدركم صعب وشائك لكنه ليس مستحيلًا وأعطانا الخاتم، وطلب منا دفنه في مكان ما وإلا سيجلب لنا المتاعب، عندما خرجنا من عند العم ناجي كنا نبحث عن أقصر الطرق للبيت ونتساءل لماذا أخفى علينا سر الخاتم، وحذرنا منه ثم تركه معنا.

كانت الأســئلة هي ذاتها من رســم قدرنا الشائك هــذا، من وضعنا في المتاهــات التي لا تريد أن تنتهي، أن نركض في مدن الدنيا بحثًا عن وطنٍ أردناه ولم نجده كما كنا نحلم لحظة تخرجنا من الجامعة عن حياة وردية عادية وروتينية، هذا ما كنا نحلم به، ولكننا وجدنا أنفسنا كلمــا طلعنا من حلقــة ننزلق في أخرى كأنَّ ذلك الخاتم تكاثر ليطوق حياتنا بأكملها.

قاطع غرقي صوت الباب الذي كان يُقرعُ، لم أعتقد أن صداقتي بإســحاق قد تتطور بهذه الســرعة، «يبدو أنّه من الســهل أن يصبح المصابون بالفقد أصدقاء وأن يكونوا نافذة لبعضهم يُطلُّون منها على الهواء».. هكذا كان يقول إسحاق الذي أصبحتْ لقاءاتي به شبه يومية سواء في شقتي، أو في الـ«الأنتيكا بيسا»، كانت لحظة إسحاق هي اللحظة الوحيدة التي أســتطيع بها أن ألفظ ذاكرتي كمن يلفظ قلاعًا علقتْ بداخله، ومنذ بدأتُ أكتب سيرتي الذاتيــة كنتُ قــد وجدتُ طريقة أخرى في التنفس، كان إســحاق قادرًا على أن يمتّعني بصمته لســاعات دون أن ينطق بحرف واحد كما كنتُ أفعل أحيانًا.. كان ذلك غريبًا ومدهشًــا، ولكنه كان مريحًــا إلى حدٍّ ما.. عندما جلس إســحاق كان واضحًا عليه الانزعاج، لم أبادره بالســؤال ولكنني تركته يمســك خيط الكلام من حيث يشــاء، لم

يستطع الانتظار حتى أعدّ له قهوته الغارقة بالسكر كما يحبّ..

ـ كم هو عجيب هذا الزمن! عمي صالح الذي رباه أبي بعد أن مات جدي ـ وهو في طريقه من «مقديشو» إلى «دِينْصُور»ـ يطالب أبي بحقه، كان عمي صالح صغيرًا آنذاك ولم يتجاوز الثانية من عمره، إنه يتهم أبي بأنه سَرقَ ماله، منذ ان انضم إلى أولئك الملتحين الذين يدعون بأنهم يقيمون شرع اللّه ويُسمونَ نفسهم «شباب المحاكم الإسلامية» وهو لم يعد عمي صالح اللطيف الذي يحبه كل من في الحي، لقد أصبح عبوسًا ولا يفارقه السلاح، تزوج ثلاث فتيات لم يبلغن الثامنة عشرة في أقل من سنة يقول أبي: «لو أن جدك كان على قيد الحياة لمزقه كما مزق أسدًا افريقيًّا ضخمًا اعترضه في الطريق يقولون: «إنه وقف أمامه ولم يخف، أخرج خنجره ونزع ثوبه ولفّه على يده اليسرى، وتقدم نحو الأسد صارخًا في وجهه: هيا تقدم، وعندما قفز عليه الأسد غطّى وجهه بيده اليسرى ومزّق بطن الأسد بيمناه التي كانت تمسك بالخنجر، وعندما عاد إلى القرية كان يجرُّ الأسدّ معه كبطل أسطوري». لم أعترض إسحاق في حديثه كنت أعي بأنه كان يحتاج لمن يصغي له إلى

النهاية، ناولتهُ سيجارة لكي أهدئ من روعه قلت: وماذا سيفعل أبوك الآن؟

بعد أن ظهر وجههُ من بين دخان السيجارة الذي كان كثيفًا قال: لو كان أبي يستطيع فعل شيء لما اتصلّ بي!

ـ وأنت بماذا تفكر؟

أعاد سحب السيجارة بعمق ثم قال: «لو كانتْ فرْحية على قيد الحياة لطلبت مني أن أرمي المال في وجهه شرط أن يكف عن مضايقة أبي لكنه سينقصني جزءٌ من المال ولا أعلم إن كان صاحب المطعم سيقرضني مقابل أن يخصم من مرتبي.. لماذا أصبح العالم موحشًا بهذا الشكل؟ لقد كان هناك شرٌّ ولكنه لم يكن ينتشر هكذا كالسرطان لقد مسحوا كل الألوان التي كانت في الصومال أبقوا على اللون الأسود فقط وزعموا أنه لون الله..» كان إسحاق يهدر كما لو أنه كان شلالًا محبوسًا، وكنتُ أنصتُ إلى كل كلمة يقولها، هذا يشبه إلى حدٍّ ما ما جاء في رواية مازن سالم.

غادرني إسحاق فقمتُ بفتح البريد مرة أخرى وأردتُ أن أكتب لمازن.. كتبْتُ جملًا كثيرةً ومسحتها «عزيزي مازن.. الروائي مازن.. أيها العظيم.. الخ» لم يقنعني منها شيءٌ ولكنني ابتدأت الكتابة أخيرًا..

«مازن سالم.. هذه أول مرة أقرأ لك فيها، أنت روائي عظيم لا أدري هل لأنني أحسستُ بأنني ملتصقٌ بعملك إلى حدٍّ بعيد، أم لأنك كنتَ عظيمًا ومدهشًا حقًّا.. عملك هذا يجب أن يرى النور قريبًا وفي أسرع وقت ممكن، ولكنني لا أعلم كيف سينجو من سطوة الرقيب، وختامًا أتمنى أن نصبح صديقين إن لم تكن تمانع.. عمر الطلياني»

أرسلتها وانسحبتُ نحو الكتابة من جديد، لطالما كانت هذه المساحة البيضاء نقطة ضعفي التي لم أستطع أن أقاومها منذ بداية تلمّسي للطريق الأول فيها، إنني كلما اعتقدتُ أنني ذهبتُ بعيدًا بها كنتُ أكتشف أن الطريق ما زال بعيدًا وطويلًا جدًّا، وأنّ ما قطعته شيء لا يكادُ يذكر، قررتُ الكتابة عن أبي الذي رحل عني وترك جزءًا، كبيرًا فيّ مشرعًا للبرد، لم أكن أعرف هل كانت كتابتي عنه انتقامًا منه لرحيله المبكر.. أم كي أحاول استعادة كل اللحظات التي اختطفتها مني الذاكرة، وأن أثبّتها في مكانٍ ما وأجعلها عصيّةً على التلاشي، كان ذلك صعبًا ولكنني استعنتُ بحكايات أمي التي كانتْ تذكرني كلما سنحتْ لها الظروف بأبي وكيف أنه كان صيادًا ماهرًا وبأنه كان يريد أن يعلمني الصيد إلى جانب دراستي لقد نجحتُ في تصيّد الألغاز الشائكة في حياتي، وفشلتُ في مجاراة سمكة صغيرة في العوم، ثم لماذا عليّ أن

أخجــل! فحتى أبي الذي ابتلعتهُ موجة لعينة لو كان عاد لنا لكان غيّر رأيه.. أحسبُ ذلك، وعندما كنتُ أقول لأمي بظنــي هــذا كانت تنهرني وتصرخ في وجهي بأن أبي لم يكــن يخــاف البحر، وأن علــيَّ أن أكون مثله، وألا أخاف من شيءٍ، ها أنا الآن يا أمي لم يعد هنالك شيء أخاف منه سوى هذا العمر الذي يمضي سريعًا دون أن يستريح قليًلا، ودون أن يترك لنا فرصةً كي نستعيد أنفاسنا.

أشباح الغرفة 281

لــم يكن الوقت الذي مضى كثيرًا منذ آخر مكالمة مع ســهام لأجدني أطلب من ســائق التاكســي أن يسرع إلى مستشــفى روما الأمريكي.. لا أعلم كم منحتُ سائق التاكســي، كنتُ أركض قليلًا وأســرع في المشي وأحمل قلبــي بيــن يدي في أروقة المشــفى، مكالمــة الطبيب فــي الشــهر الماضي زفّتْ لي نبأ وفاة ســعيد ومكالمة الطبيب الآن تأمرني بأن أحضر للمشــفى مســرعًا؛ لأن ســيدة تدعى ســهام تريد أن تراني، كان اللون الأبيض للمشفى من الداخل مستفزًا لكنني واصلتُ التدحرج في غرف المشفى إلى أن وصلت إلى الغرفة رقم 281 والتي كانت تســتلقي فيها ســهام وحولها الطبيب وممرضتان، انتبــه الجميع لي لحظة دخولي الغرفة وعرفني الطبيب مباشــرةً.. كانت علامات الاســتفهام تمــلأ عينيّ، كيف حــدث؟ ومتــى؟ ولماذا الآن؟ لم ينتظــر الدكتور ماركو جيوفاني أن أنطق بحرف واحد..

ـأهلا بالسـيد عمر.. أنا الدكتور ماركو جيوفاني المسؤول عن حالة السيدة سهام.. هي نائمةٌ الآن، تستطيع أن تتفضل معي إلى مكتبي لنتحدث!

كانتْ عبارات الدكتور جيوفاني مبهمة لي، منذ متى وهي هنا؟ وما بها؟

كنـتُ أحتاج تفسـيرًا يعيد لي قلبـي الذي أصبح ينبض بشـدة. الدكتور ماركو من النوع الذي لا تسـتطيع معرفـة مـا إذا كان قلقًا، أو فرحًا، ملامحه جامدةٌ جدًّا ويبـدو أن أغلـب الأطباء هكذا، إذ يبدو لهم الأمر عاديًّا فقد أصبح جزءًا من يومهم، لم أسـتطع الانتظار إلى أن يقول أي شيء وبادرته..

ـ أرجوك أخبرني ما بها سهام هنا؟

ـ أريد أن أعرف أولًا هل أنت زوجها؟

كان السؤال في غير وقته ولا مبرر لكي أكون صادقًا أو كاذبًا في ما سأقولهُ للدكتور.. وهل هذا سيجعل الإجابة تختلف؟ أنا صديقها وصديق زوجها المقرب والذي توفي الشهر الماضي.. هيا أخبرني!!

أثر كلامي بجلسة الدكتور ماركو إذ أخرج نظارته، ووضعها على المكتب:

ـ يا سـيد عمر السـيدة سـهام مصابة بسرطان الرئـة، وقد سـعلتْ كثيرًا وتقيأتْ دمًـا، وهي من طلب سـيارة الإسعاف، وعندما وصلنا إلى الشقة كانت فاقدة للوعي، وقد ساعدناها على استعادة وعيها وأول ما قالته هو اسـمك وطلبتْ منّـا أن نهاتفك ونخبرك بما حدث، حالتهـا خطرة جدًّا.. تبقّتْ بعض نتائج الفحوصات التي لـم تظهـر بعد، ولكنني من واقع خبرتي أشـعر أنها في حالة متقدمة من المرض.. لم أستطع أن أكمل استماعي لحديث الدكتور ماركو وخرجتُ مسـرعًا إلى ما لسـتُ أعلم، حبسـتُ دموعي بشدة ولم أفلتها إلا بعدما لفحني الهواء البارد وأنا في «الإميليو لونجوني» كانت السيارات قد بدأت تختفي؛ لأن الوقت كان متأخرًا، جرّتني قدماي إلى حديقة المستشـفى لم يكن هناك سـواي، استطعتُ سماع تفاحتي وهي تتأرجح وتحاول أن تبتلع الحزن الذي سببهُ لي كلام الدكتور ماركو، أخرجتُ علبة السجائر من جيب المعطف لم أكن قادرًا على فعل أي شـيء، حاولْتُ الغرق في ضباب السـجائر التي كنتُ أشـعلها واحدةً تلو الأخـرى، لكنـي كنتُ أنجرُّ إلى ذاكرتي التي لا تلتقط إلا اللحظـات الأكثـر وجعًا فكنتُ كمـن يضع إحدى قدميه علـى إبـر الماضي والأخرى على جمـر الحاضر، جمر سـهام التي أصبحتْ مغلفةً بشـبح الموت الذي اختطف

كل الشـــموع التي كانتْ تضيءُ لي حياتي، ســـهام القوية التي وقفتْ في وجه أهلها أمام خياراتها لم تســـتطع أن تتفادى هذا الشـــبح المرعب، أربع ســـاعات كاملة مضتْ وأنا في كرسي الحديقة لم يخرجني من سقوطي المرير داخلـــي إلا صـــوت المرضى الذين يخرجون لاســـتقبال الشـــمس في الحديقة كل يوم، لابدّ أن شـــكلي كان غريبًا لهـــم، مـــاذا يفعل هذا العربي في هذا الصباح الباكر هنا لملمتُ قصصي الحزينة معي، وتوجهتُ نحو الغرفة رقم 281 لأراها بنفســـي وأجســـها بقلبي، داهمني إحســـاس لوهلةٍ أن الدكتور ماركو ربما كان مخطئًا فابتسامة سهام التي استقبلتني بها كانت قد بددت كلام الدكتور، تركتنا الممرضـــة وحدنا كنت أريد الكلام لكن ســـهام صفعتني عندما أشـــاحتْ بوجهها جهة النافذة، ضاع الكلام الذي كنتُ أريد أن أبتدئ به اللقاء، كان الصمت مربكًا لي جدًّا ولم أفهم لماذا ابتسمت ثم أشاحت بوجهها عني حاولتُ أن ألمس يدها لكنها قبضتها بعد أن كانت مبســـوطة لا بد أنها كانت غاضبة مني لأنني تجاهلتُ مكالماتها، كانت دموع سهام على وشك النزول لمحتها وهي تطرق أبواب عينيها وعندما كدت أن أقول:

ـ سه.. ه.. ا.. قاطعتني بصوت عال:

ـ لماذا فعلت هذا؟ كانت الدموع قد كسرتْ أبواب

عينيها ولم تستطع سهام أن تحتمل أكثر وبدوري كانت الحروف تستعصي وتتأبّى، لم أضع عيني في عينها، تمنيتُ لو أنني أختفي الآن حاولت أن أستجمع شتاتي الرهيب وأصوغ جملة لكن صوتي كان هو الآخر قد هرب، عندما أعادتْ وجهها إلى ناحية النافذة عاد لي صوتي..

ـ سهام أنا جبان جدًّا، وكل ما واجهته في حياتي كان يجب أن أواجهه وعندما كان لي الخيار بأن أهرب منك، اعتقدتُ أنني أستطيع فعل ذلك وحاولتُ لكنني فشلتُ ولذلك أنا هنا الآن.. أجّلي أي خلاف بيننا لوقت آخر وأخبريني بماذا تحسين؟ كدتُ أموت قلقًا عليك.. بدا صمتها أكثر إرباكًا لي.. مددْتُ يدي لأمْسَح دموعها لكنها حاولت أن تُبعد وجهها بغنجها المعتاد إلا أن ابتسامتها التي لم تستطع إخفائها غالبتها مما جعلنا نضحك ونضحك إلى أن دخل علينا الدكتور ماركو ونحن نضحك بجنون..

ـ أشركوني معكم أريد أن أضحك أنا أيضًا.. يبدو أنكِ أحسن اليوم يا سهام أليس كذلك؟

هزّتْ رأسها بالإيجاب، أخذ الدكتور ماركو يدوِّنُ ملاحظاته وطلب من الممرضة الإتيان بطعام الفطور لسهام، ثم غاب في زحمة المرضى، رنّ هاتفي لحظتها، وكان رقمًا غريبًا حاولتُ تذكره، ولم أستطع وعندما رددتُ

عليه وجدتُ صوت شـــاب صغير ويبدو أنه يهاتفني من السعودية..

ـ ألو.. السلام عليكم.. الأستاذ عمر؟

ـ وعليكم السلام.. أهلًا.. نعم، أنا عمر.. من معي؟

كان كمن يحاول شد الحروف كي يجيد الحديث كان مرتبكًا جدًّا.. أنا مازن سالم الذي أرسل لك الرواية وقد أخـــذتُ رقمك من الصحيفة بعدما لم تجب على إيميلي الثاني.. كنتُ أجهل اهتمام هذا الشـــاب الموهوب بي أنا شخصيًّا، ولكنني لم أحاول التهّربَ منه..

ـ أهلًا بك يا مازن أنت فتى مدهش تشرفتُ بك..

قلت ذلك كي أزيل ارتباكهُ..

ـ حقًّا يا أستاذ عمر هل أعجبتك روايتي فعلًا؟

ـ نعم إنها عمل رائع ومن يقرأُها لن ينسبها لك ما لم تذيل اسمك على غلافها إذا نشرتها.. . قاطعني مازن:

ـ أتدري يا أستاذ عمر عندما اطلع عليها أبي مزقها وحذرني من نشرها وقال لي إن فعلْتَ: «فلست ابني ولا أنا أعرفك». انغلقت الدنيا بوجهي وعادت الغمامة الســـوداء مرة أخرى لا أذكر كيف أنهيتُ مكالمة مازن وتركتُ سهام مع إحدى صديقاتها في العمل وانسحبتُ نحو شقتي كان

الشـــريط الذي قطعته من البداية يمتد من جديد ويعلن لي دائريته، شـــخص آخر بعد عشـــرين عامًا، سيضطر إلى أن يكرر حياتي نفســـها بعنوان آخر أحسســـتُ أن كل شـــيء في هذه الحياة يمد لي لســـانه ساخرًا، أيعقل أن تلك البلاد لم تتقدم خطوةً واحدة طيلة عشـــرين عامًا، كم عدد الذين أصبحتْ أقدارهم سوداء إلى هذا الحد يا الله؟ إننا أمة تسير نحو العزلة السوداء التي تحدث عنها مـــازن، روايـــة واحدة تقطع صلتكَ بالمكان الذي ســـقط رأسكَ فيه حتى تصرخَ ليته لم يسقط، كان مازن يصرخ في روايته: «لماذا حملتم هذه الرأس إن كانت لن تعجبكم لاحقًا» ظللت أسأل هذا السؤال إلى أن انزلقتُ إلى شقتي ونمتُ لفرط التعب والسهر.

****

كانت أضواءُ البرق تجرحُ ندف الثلج التي كانت تودع روما به شـــتائها القارص، وكنتُ أبصر من زجاج النافذة عمري الذي أصبح يودعني كما تودع روما شتائها، أردتُ أن أخرج يدي لكنني ترددتُ كما ترددتُ في كل أمور حياتي، لكنني قررتُ فجأة أن أتدحرج إلى الشـــارع كي أشـــارك روما وداعها على طريقتي، اتفقت أن نلتقي أنا وإسحاق عند نافورة تريفي بعد أن مضتْ خمســـة أيام لم أذهب بها إلى «الأنتيكا بيســـا»، انهمكْتُ بها بكتابة هذه الســـيرة

الملعونة ومتابعة سهام التي كان شيء ما بداخلها ينطفئ تدريجيًّا رغم محاولاتها إخفاء ذلك بابتسامة دائمة تخفي الصفـــرة التي اكتســـتْ وجهها، لم تكـــن النافورة مكتظة كالعـــادة بالبشـــر الذين يطوقونها دائمًـــا، إنما بذكريات رطبة مع ســـعيد، ذكريات قد تعرضني للانزلاق في أي لحظة في هاويتها السحيقة، عندما كنت أحاول الجلوس علـــى أحـــد أطراف النافورة كان إســـحاق يلوّح لي قادمًا من الـ«دي لوشيســـي» إســـحاق الذي انزلق لحياتي بشكل مفاجئ وبدون مقدمات أصبح جزءًا منها في لحظة ما، وأصبحتُ جزءًا من حياته التي وجدتني في خضمها أيضًا، كان كلانا يحاول أن يمســـك بالطريق كلما ظن الآخر أن الطريق سيقع!!

إسحاق الذي يخالفني في المبادئ والقناعات إلى حـــدٍّ كبيـــر إلا أننا نتفق في أن الموتـــى لا يموتون أبدًا، وبأنهم يزدادون حضورًا كلما أوغلوا في الرحيل.

كان إســـحاق عاشـــقًا من ذاك الطراز النادر الذي لا نجده إلا في قصص العشـــق المثالية، لكنه كان قصة استطعتُ لمسها بيدي رغم أنه مضت عشرة أعوام على رحيـــل زوجتـــه فَرْحيةْ التي تزوجهـــا عن حبٍّ مدمر كما يحب أن يصف حبه دائمًا إلا أنها ما زالت تعيش معه.. «أتدري يا عمر أصبحتْ فرحية تغار من الســـاعات التي

أقضيها معك خارج العمل.. لقد قضيت البارحة بأكملها في مراضاتها» لم أكن أنكر على إسحاق عندما يحدثني عن فرحية بهذه الطريقة، فأعرف معنى أن لا يرغب الشخص بقتل ذاكرته لأنه يحبها، لم يقترب من امرأة أخرى أبدًا منذ أن رحلتْ فرحية، حاولتُ أن استدرجه مرة في الكلام:

ـ لماذا لم تقع في حبٍّ آخر يا إسحاق؟

ـ وما حاجتي لحب آخر وفرحية تعشقني كما لم يُعشقْ رجل من قبل، وأحبها كما لن أستطيع أن أحب فتاة أخرى!؟

إجابته اليقينية كانت أقوى من أن أستمر في استدراجه أكثر، كان إسحاق قد حسم الكثير من أمور حياته الكبرى، إلا أنه كان كلما تحدث عن الصومال يبدو كمن يتحدث والخنجر مغروز بظهره، لغته تتغير، وجهه يصبح مكهربًا، وسيل من الشتائم ينهال منه «عيال الكلب.. أخذوا كل شيء جميل ولوثوا الهواء الذي كنا نستطيع أن نورثه لأطفالنا، الأوغاد.. الملاعين..» لا يتوقف إسحاق عن الشتم، والانفعال كلما جاء ذكر بلاده، أو شاهد صور المسلحين في شاشات الأخبار «لقد ثار الصوماليون بسبب ظلم «سياد برّي»، لكن هؤلاء الأوباش جعلونا نتمنى ظلم «سياد برّي» على ما تعيشه الصومال الآن، أتدري يا

عمر؟ الملايين يقيمون هنا في أوروبا، والملايين يعيشون بطريقة مزرية في بعض البلدان العربية.. وهناك الملايين لا يعرفون شيئًا عن بلدهم وربما يجهلون لغتها، كيف يمكن لثورة قامت بسبب الظلم أن تخلّف كل هذا الخراب؟ كنا نسميها ثورة لكنّا أصبحنا نسميها حربًا أهلية، لم نتفق حتى على تسميتها؛ لذلك أصبح كل شيء في الصومال منتهيًا، ولم يعد شخص يفضل العيش هناك إلا لأنه لا يستطيع أن يعيش خارجها «يفاتح إسحاق أي شخص عن حالة بلده ويوبخ الدول العربية التي وقفتْ تتفرج على ما يحدث دون أن تفعل شيئًا سوى أن تلوّح بمعونات بسيطة لم تكن لتوقف المجاعة التي اجتاحتِ البلاد لسنوات، لتعلن أن الإنسانية تنقرض وتنهار ولا شيء أصبح يخدش إحساسها ببعضها، لم أكن أعرف الكثير عن الصومال سوى «نور الدين فارح» الروائي الكبير الذي كان يحتمل معه وطنه تارةً في جيبه وتارةً يلوّح بخريطته المنسية في جميع أنحاء العالم، كانت قصة المأساة الإفريقية تبدو لي متشابهة ولم أحاول في يوم ما أن أفتّش عن منابع المأساة في بلد كالصومال إلا أن إسحاق جعلني أفتح عينيَّ عليها، إنها المأساة التي غفل عنها العالم وتجاهلها كثيرًا بدم بارد..

«كانت البلاد تزدهر شيئًا فشيئًا إلى أن توقف

الزمـــن فيهـــا في عام 1991 عندما انهار النظام بســـبب ثورة مســـلحة كنا نعتقد أنها كانت ترفض بعض جوانب الظلم في البلاد وأنها ستأخذ بيد الصوماليين إلى فسحة النور الكبيرة، لكننا اكتشفنا بعد ذلك أن الرصاصة التي انطلقـــتْ لم تنطلق لتصيب جســـدًا واحدًا، إنما انطلقت على صندوق ذخيرة لا ينفد؛ ليُقْتَل البريء والجاني ولينام القاتـــل والمقتول في الشـــارع، جنبًـــا إلى جنب، وليعضّ الصوماليون أصابعهم العشـــرة دفعـــة واحدة.. أوباش.. عيـــال كلب» هكـــذا كان البركان يقـــذف حممه كل فترة داخل إســـحاق الذي غادر ليترك آلامه وراءهُ، لكنه أدرك أنه سيحمل عذاباته معه كصخرة سيزيف إلى الأبد، كنا نهـــربُ عادة عندما يفيض بنا الوجع وتفيض بنا الذاكرة إلى الشرب، ولكننا كنا ننزلق بعنف إلى هاويتها المسننة، يضحك إســـحاق بعد الكأس الثالثـــة ويحكي: «أتدري.. ماذا فعل المسلحون أصحاب اللحى، أحدهم كان يدعى «أويس علي» تزوج أربع فتيات، لم يتجاوزن العاشرة على دفعتين وكان يبطش بكل من يعلو صوته قليلًا في الحي بحجـــة أنه أمير ووالٍ علـــى هذه المنطقة، ولا يحق لأي شـــخص أن يناقشـــه، أو يفعل شيئًا يعارض رغباته، وكل هذا باسم الله، آه لو أملك وسيلة أزيل بها هؤلاء البشعين من الحياة دفعة واحدة «أتســـاءل كيف يمكن لشخص أن

يحتمل كل هذه البشاعة التي أصبحتْ تنبثق من كل شيء حواليه؟ أجيال كاملة أصبحتْ مشوهةً تمامًا من الداخل وعددٌ لا بأس به شــوّهته الحرب من الخارج على مرأى مــن العالم الذي كان يصــمّ آذانه، ويغلق عينيه عما كان يحدث هناك، لكن رغم ذلك إلا أنه كان يصبح الصندوق الــذي أرمــي به أوراقي التي أثقلتْ علي ويصبح ملاذًا لا ثاني له في كثير من الأحيان، أي قلب كان يحمله إسحاق، عندما وصل إلى المكان الذي كنتُ أجلس فيه على طرف النافورة كانتِ ابتسامته تسبقه، ووحدي من كان يعرف ما خلف هذه الابتسامة..

ـ قلقتُ عليك يا رجل.. خمســة أيام لم تفعل هذا أبدًا من قبل!!

ـ كما أخبرتكَ مســبقًا ســهام في المشفى وهناك أشــياء لا أفهمها حدثتْ لي، ســأخبرك بها في طريقنا إلى ســهام.. أطل إســحاق على النافورة قليلًا محاولًا أن يلمح قطعًا معدنية ولكن الظلام كان يمنعه.. مباغتًا كان سؤاله لي:

ـ هل جربّت ورميت قطعة نقدية كما يفعل الجميع في هذه النافورة؟

صمــتٌ قليلًا.. وأجبتُ: نعم فعلتُ، ولكنني لم أتمنَّ

أي شـــيء.. وهذا هو ســـبب وجودي في هذا اللغز الكبير الذي كلما اقتربتُ من حله انبثق من جديد أعتى وأشـــد ضـــراوة مـــن الوحوش التـــي كانتْ تصـــارع الرجال في كولوســـيوم روما الشـــهير، كلما تأكدتُ من موت الوحش كان يباغتنـــي ويغرز مخالبه في قلبي، هذا الوحش الذي أصبح يسكنني وأسكنه، أتلافاه في النهار فينزلق لي من النافـــذة ليلًا لأصارعه طـــوال الليل، قتلتكَ أيها الوحش فلماذا لا تموت!!؟

يســـحبنا صمتنا المعتاد إلى أقاصيه البعيدة جدًّا لنرتد كحجرٍ فر من المقلاع للحظتنا المغطاة حدّ العري، يسألني إسحاق ونحن نتدحرج في شوارع روما بحثًا عن أرصفة يستريح بها الكلام الذي لم نقله: هل مدينتك التي غادرتها مليئة بالأزقة كهذه المدينة التي تلتف شـــوارعها كالحلزونات؟.. هههه مدينتي التي غادرتها صغيرة جدًّا، لكـــن ذاكرتها عميقة جدًّا أيضًا، وقديمة حتى أنها بدأتْ تُصاب بفقدان ملحوظٍ للذاكرة كما يقول سكانها القدامى ويمكنك أن تقطعها في ساعات قليلة مشيًا على قدميك هي ليســـتْ مليئة بالأزقة.. مشرعةٌ للبحر بشكل فادح.. يحكـــى أن البحر أراد عناق الجبل فلم يســـتطع، فقذف مدينة ملحيةً تقف حائلًا بينه وبين الجبل، إن فكّر الجبل في تغيير رأيه والذهاب إلى البحر، أتدري يا إسحاق لم

يكن من السهل أبدًا أن أحمل طفولتي الرطبة إلى هنا، لقد بقيتُ ذاك الطفل الذي ينتظر موسم اللوز ولا يعود إلى بيته مبكرًا، لقد حملتُ عنادي كلَّهُ وتوكّأتُ عليه، وكلما شعرتُ بأنه خذلني توكأتُ عليه مرةً أخرى. قاطعَ حديثي صوت الهاتف، كان الدكتور ماركو جيوفاني هو الذي يتحدث.. السيد عمر أعتقد أن الوقت غير ملائم ولكن يجب أن أخبرك بأنه يجب أن تأتي إلى المستشفى حالًا فقد ساءتْ حالة السيدة سهام. لم يكمل حديثه الدكتور ماركو إلا وقد اختصرنا أقرب الطرق لنصل إلى المستشفى الأمريكي.. استغرق الطريق ربع ساعة، كانت سهام غائبة عن الوعي تمامًا بسبب المورفين.. أخذني مرة أخرى الدكتور ماركو إلى مكتبه وبرفقة إسحاق هذه المرة الذي أصرّ أن يكون معي، كانت كلمات الدكتور ماركو واضحة جدًّا..

ـ لا أدري ما أقول يا سيد عمر، ولكن الخلايا السرطانية انتشرت في جزءٍ واسع من الرئتين لقد تأخرتْ السيدة سهام في المجيء إلى المستشفى وكان من الممكن عمل شيء يخفض من حدة الكارثة، ولكنني كنت أخشى من أن تنتشر الخلايا السرطانية بهذه الطريقة.. لم أفهم ما يقصده الدكتور ماركو إنما تأكدتُ من أن الوضع خطيرٌ جدًّا، ويجب أن نضع احتمالًا للكارثة كما

أطلــق عليهــا الدكتور، قلت له: وما الحل الآن؟ ألا يوجد عــلاج يقضي على هذا الســرطان اللعيــن؟ كان صوتي مجروحًــا جدًّا، وكدْتُ أختنــق بالكلام.. أجابني الدكتور بعد أن اســتغرق للحظات في النظر إلى الأســفل، وكأنه يجرّ الكلام من الأسفل بصعوبة هناك العلاج الكيميائي يــا ســيد عمر، ولا نســتطيع أن نبدأ به قبــل أن نخبر المريض بمضاعفاته.. هذا أنسبُ ما يمكن أن نفعله في هذه الفترة. لم نخرج كما دخلنا إلى مكتب الدكتور ماركو، كنا أثقل أو كنتُ بالأحرى وحدي أثقل من أي وقت مضى، ذهبنــا إلى كافتيريا المستشــفى ونحن لا يهمس أحدنا للآخر بأي شــيء.. لم أشــرب شيئًا وطلب إسحاق قهوة إيطالية غارقة بالسكر.. وضعتُ عيني بعيني إسحاق..

ـ لماذا؟ هل قُدّر علي أن لا أصل إلى الشــاطئ؟ هل هي مشكلتي أنني لم أستسلم أبدًا يا إسحاق؟

رشق نظراته إسحاق في الجدران البيضاء وتنهد..

ـ بل لأنك راهنتَ على كل الجهات ولم تراهن على نفسك.

ليس سهلًا أن نرقب موتنا شيئًا فشيئًا.. كنتُ أمسك برأســي من شــدة الصداع الذي بدا ينتابني، عندما كان كل شــيءٍ على وشــك أن يستقيم التفّت الحياة كأفعوان،

عبــرتُ نســاء كثيرات؛ لأصلَ إلى ســهام وفي كل امرأة كنتُ أبحثُ فيها عن ســهام، وعندما وجدتها صار عليها وعليّ أن نخوض صراعًا مع مارد شــرير فتاك مضى بنا الوقت ونحن نائمون في غرف الانتظار أو شــبه نائمين أيقظتنا حركة العاملين في المستشفى والمراجعين كانت الساعة السادسة صباحًا فتحتُ عينيَّ قبل إسحاق الذي كان منزعجًــا من الأصوات التي انزعجتُ منها، أيقظْته، وانزلقنا إلى دورة المياه، ثم ذهبنا إلى الغرفة 281 كانتْ ســهام مســتيقظة تحاول أن تقرأ لـ«بيكيت» الذي أحبّتْه، كانت تحب الكُتّاب العبثيين كثيرًا وإلى آخر لحظات حياتها ظلّت تفعل ذلك دون مبالاة بالدنيا، كانت أكثر جنونًا مما كنــت أتوقعه منها في بعض الأحيــان ناديتها واطمأنينا عليهــا، كان وجهها شــاحبًا جدًّا، لــم ألاحظ صديقتها ياســمين التي كانت تســتلقي في الكنبة ليلًا عندما أتينا أنا وإســحاق، كانت تتكلم بصعوبة، الفتاة المجنونة غير قادرةً على الكلام كما كانت تفعل، سهام التي كانت تعيد تعريف الحياة كلما التقيتها، شــيءٌ منها بدأ ينسحب من الحيــاة، شــعرتُ بوخزةٍ في قلبي نجحــتُ في إخفاءها، انزلق ســؤالٌ افتتحْتُ به الحوار مع ســهام.. كيف حالك اليوم؟ كانت إجابتها باردة ورمادية جدًّا: «إنني أفضل مما كنــت عليــه البارحة..» قبل أن يضيف أحدنا أي جملة..

كانت ياســـمين تلقي تحيتها.. «أهلًا بك عمر» وعرّفتها لإســـحاق ابتدأنا بالحديث، وشرب القهوة وقبل أن نشرع بالحديث عن سهام اضطر إسحاق إلى الذهاب إلى عمله، كانت ياســـمين فتاة جميلة جدًّا تعمل بالفنون التشكيلية، فضلـــتْ عـــدم الارتباط وقتلتْ النصف العاطفيّ فيها، إذ لا تجدها كباقي النساء، تندفع بحديثها بثقة عاليةً، حادةٌ جـــدًّا في حديثها مع الرجـــال، تقول إنها ورثت ذلك من أمها التي كاد أن يقتلها أبوها لولا تدخل رجال الجيران، وتســـليم أبيها إلى البوليس، مما جعلها حادة جدًّا كأمها، لم تعشـــق ياسمين أي رجل في حياتها ولم تضعف أبدًا، أتتْ إلى روما وهي في الرابعة عشـــرة من عمرها طافتْ معظم أرجاء أوروبا، والولايات المتحدة، وشـــرق آســـيا ؛ لتعـــرض لوحاتها لا تملك إلا صديقة واحدة هي ســـهام وتعرف كل شيءٍ عنها، كانت فتاة غريبة ومدهشة.. قالت لي ياسمين: «إن سهام كانت تتألم بالأمس ولم يجْدِ معها أي شيء سوى المورفين الذي جعل شموع ليلتها تنطفئ، ولم تكن تعلم ياســـمين عما أخبرني به الدكتور جيوفاني عن العلاج الكيميائي، في هذه اللحظة كانت سهام غارقة في كتاب «الحب والصحبة الأولى» لبيكيت، أخبرتُ سهام عن ما قاله الدكتور جيوفاني، فأمســـكتْ فمها دهشـــة وفزعًا مما جعل ســـهام تنتبه، لم تكن الجمل جاهزة ولو

وقعت الكذبة كانت ستكون عارية جدًّا، اضطررتُ للوقوف والاقتراب من سهام، أمسكتُ يدها اليمنى بيدي، انتبهتْ لنا ياســمين واســتأذنتْ بلطف لتجري بعض المكالمات كنتُ أغرق في عيني ســهام كما لم أغرق من قبل قبَّلْتُ يدها فابتسمتْ لي..

ـ أنت قوية يا سهام وجميلة، سهامك ما زالت هي ذات الســهام التي أصابتني في أول لقاء، إنك تتجددين دومًا يا ســهام.. حدائقُ معتمــةٌ فيها كانت تتفتحُ، ومدن ضائعة كانت تبدو وقد وجدتْ طريقها أخيرًا في خرائطها المجهَــدةْ، ما زلتُ محتفظًا برســائلكِ القديمة، مازالتْ دافئة وملهمة.

كانت الدهشة واضحة عليها..

ـ حقًّا؟ أحبكَ عمر، لقد أحببتك منذ البداية وها أنا لك الآن، وإن كنتُ ناقصة..

تقــول ذلــك.. وتذهبُ بنظرها نحــو النافذة كأنها تطل على ماضيها القريب، ماضيها الذي كان أبعد منها، حياتها التي عاشــتها ولم تعشــها، لم أدعها في وضعها هذا.. انحنيتُ نحو أذنها وقلتها لأنه كان يجب أن أقولها..

ـأحبكِ ســهام.. أحبكِ أكثر من أي لحظة مضتْ، التــفَّ الطريق وعاد بنا نحــو محطتنا الأولى، ويجب أن

نســـلك الطريق التي رفضناها منذ البداية، نحن قادرون على أن نفعل هذا أليس كذلك؟ أومأتْ برأســـها وكانت الدمـــوع تلتمـــع في عينيهـــا.. حبيبتي أخبرنـــي الدكتور جيوفاني أنه ما من طريقة كي نتغلب على هذا السرطان اللعين، إلا حل واحد وهو العلاج الكيميائي وأخبرني أنه لا يستطيع أن يبدأ به قبل موافقتك.. تلبّد وجهها وتعكّر، أحسستُ أنني أخطأتْ، فجأة رشقتْ بصرها في السقف واندفع صوتها غريبًا ومفاجئًا لي:

ـ وأنت ماذا ترى؟

ـ ليـــس المهم أنا بـــل أنت حبيبتي، أنا إلى جانب ما سيجعلك بخير:

ـ أعدها مرة أخرى قلها.. أريد أن أسمعها دائمًا!!

ـ حبيبتي.. حبيبتي.. حبيبتي.. حبيبتي.. حبيبتي.. حبيبتي.. حبيبتي

ـ يااااااه أشـــعر بأني أخف من أي لحظة مضتْ يا حبيبي.. ســـأقولها كما أريد وعندما أشتهي ذلك.. إن كان حبيبي موافقًا على العلاج الكيميائي ليس هناك ما يجعلني أتردد.. أنا موافقة يا حبيبي يا عمر.. آآه أشـــعر أنني أريد أن أقولها دائمًا.

بدتْ ســـهام كفراشة تقفز من زهرة إلى أخرى في حديقة الحب الذي عاد ليبلل حياتها وحياتي من جديد،

وشيء ما كان ينبعث داخلي أنا أيضًا كنتُ أحس بالنور وهو يبتدئ من غرفتنا بالمستشفى. دخل علينا الدكتور ماركو لحظتهـــا وهو يفكر بالجمل التـــي يجب عليه أن ينتقيها عندما سيخبرها بضرورة حاجتها للعلاج الكيميائي، ولكنه تفاجأ بضحك سهام الذي خفف قلقهُ هو أيضًا.. بعد أن اطمئن عليها وعلم بأنها وافقتْ على الشروع في العلاج الكيميائي، استأذنْته في إن كنتُ أستطيع أن آخذها غدًا قبل البدء في العلاج إلى قاعة ســـانتا سيسيليا ونجحتُ في ذلك وكان هذا مفاجئًا لها.

ـ ســـنذهب غدًا إلى ســـانتا سيســـيليا ســـيكون «ريكاردو موتي» قائدًا لها وباولو ريســـتاني على البيانو.. أنت تعشـــقين عزف ريستاني وســـيقومون بأداء «بحيرة البجع» لتشايكوفسكي ويجب أن لا ترفضي

ـ إن كنـــت تدعوني كحبيبتك ســـأقبل.. عدا ذلك اذهب وحدك!

ـ حسنًا يا حبيبتي.. إنها دعوى من حبيب لحبيبته!!

ـ لقد قبلتْ.

مـــرّ اليوم لا أدري كيف؟! لكنه كان عاصفًا وهادئًا إلا أنني نمتْ كما لم أنم من قبل لم أكتب شيئًا ليلتها لم أكن بحاجة لأن أقبض على لحظة تسكنني.

ـ 2 ـ

أزمنـــة بداخلي بدّلتْ جلدهـــا، كنتُ قادرًا على أن أحسّ بذلك بوضوح شـــديد، كل شـــيءٍ فيّ كان يحاول أن يعلن عن نفسه ويندفع للحياة من جديد.. زمن طويل الآن اختفـــى في أحد ثقوب الذاكرة، وأصبحتُ مســـتعدًا لأن أعانق العالم، أريد أن أمسك هذا الهواء البارد، وأضمه لصدري إنني أرى الهواء، أرى هذه الموجات التي لا تُرى، وأمدُّ يدي مخترقًا الفراغ الفسيح أكاد أسكنُ في الهواء ويكاد يســـكن داخلي، اندفعْتُ أخف من أنهار الدنيا نحو ســـهام التي كانتْ فاتنةً بألوانها الشـــتائية، كنتُ أبصرها وأعـــود إلى تلك اللحظة الأولى التي رأيتها، فيها شـــيء مـــا يعيدني دائمًـــا إلى تلك اللحظة، إنهـــا الدوائر التي رســـمتْ حياتي، أصرّتْ ســـهامُ على أن تأتي بنفسها إلى باب القاعة لم أقل شيئًا، أدهشني جمالها الذي كان يأتي من جهة بعيدة بداخلها، جمال كأني أدرك كنهه لأول مرة استدارت سهام لتسألني..:

ـ ما رأيك حبيبي؟

ـ أين كنتِ تخبئين كل هذا الجمال يا سهام؟

ـ مـــاذا أفعـــل لكَ إن كنت أعمى ولم تســـتطع أن تكتشفه كل هذه السنين؟

ضحكنـــا معًا، وقبائل تصـــرخ بداخلي: «لقد رأيت جمالـــك هـــذا منـــذ اللحظة الأولى ولكـــن ما حدث كان أكبر».. تمســـكتْ بذراعي اليمنى وانزلقنا إلى «الســـانتا سيســـيليا» كانتْ القاعة على وشـــك أن تمتلئ، جلســـنا في أقصى اليمين.. لمحتُ ســـعيدًا في طرف المســـرح، تعثـــرت تفاحة آدم بحلقي، وشـــعرتُ بأن قدميّ التصقتا بالأرض، لم يدم سوى ثوانٍ واختفى، لم أشك لحظة بأنه كان هو، لم تلاحظ ســـهام فزعي ودهشـــتي، وإنما كانت تتأمل جدران «السانتا سيسيليا» قطع اللحظة دخول باولو ريستاني إلى القاعة واستقبال الجماهير الحار له، فرحت سهام لدخوله كثيرًا واكتفيت بابتسامة قلقة، سعيد الذي يجلس معي هنا في القاعة وسهام التي تصغر كل لحظة كيفُ أحافظ على اتزاني، كاد أن يفســـد علي يومي هذا الارتباك، ما إنْ وضع ريســـتاني أصابعه الرشـــيقة على البيانو إلا واندفعتْ أمواج الشـــرق الساكنة في أعماقي، أمي ورائحة أبي البحرية، كنت أراني وأنا أتدحرج في أزقة الســـوق الداخلي، راكلًا هـــذا ومزعجًا هذا، كان مجنون امسوق يصرخ في داخلي.. لا أدري لماذا كل شيء انبعث مرة أخرى؟ لا براءة الموســـيقى جعلتني وجهًا لوجهٍ مع ماضيّ الذي كنتُ أحاول تفاديه طيلة هذه الســـنين، يعلو ريســـتاني بالسلّم الموسيقي لأقصاه، ويهبطُ في انسجام

عميقٍ مع باقي الفرقة، شـــيءٌ ما يمســـك بالقلب ويشدُّه كلما ارتفع انفعال ريســـتاني، إنها أشـــد لحظات الإنسان تركيزًا، داخلي يتلاطم، ويسكن، يصعد النفس ويهوي في فراغ الروح، فجأة أشـــعر بســـيغفريد يصرخ في داخلي: «لســـت أنت من خانَ البجعة يا عمر» ينتهي الجزء الأول مـــن المعزوفـــة وتبدو ســـهام طالعة من رمادهـــا، مبتلةً بحرائقها، تحدق في جهة بعيدة من المسرح، حتمًا إنها ترى ما لا يراه كل من في القاعة، لم أفسد عليها ذهابها البعيـــد.. صعدتْ الموســـيقى مرة أخرى، كانت البجعات تغني لسهام، وكنتُ القادم المرهق، لا بد وأن سهام تفكّر بالتاج الذي تأخرتُ في وضعه على رأســـها. لم أتأخر يا ســـهام، ولكن القدر كان أسرع مني. يشير ريكاردو موتي على أحد عازفي الكمان، ويخترق صوت الصولو أقصاي تمامًا، كالعصفور الذي أحرقتْ صيحته ســـغفريد، أملْتُ وجهي تجاهها، قبّلْتُها في رأسها، لم يكن التاج الذي كانت تريدهُ، لأنه لن يخلصها من غرقها الأكيد..

ـ أتدري.. ؟ إنني أسعد امرأة الآن على وجه الأرض.

ـ لا لا أدري.. لم أنت سعيدة هكذا؟

ـ إنني أغرق فيك ثانية يا حبيبي!!

يعـــود ريســـتاني مرة أخرى ويعود ســـعيد، أغمضُ

عينيّ لكي لا أراهُ، يخرج من داخلي، أمسك به، وأعيدهُ إلى داخلي، يتسرب من بين أصابعي، ليتني أنا من تسرّب من أصابع الدنيا، أشهق كمن يبتلع هواء القاعة كله، تحمرُّ عيناي وتغسل حمرتها دموعي التي بدأت تتدفق، لم تلحظ سهام دموعي وكانت تواصل غرقها اللذيذ في بجعات تشايكوفسكي، وكنتُ أغرق في نفسي، كلانا كان ينجرّ مع الموسيقى إلى مدنه السحيقة، مدنه المغطاة بشال الوقت، أيُّ نهرٍ هذا الذي كانَ يجّرفُنا باستسلام فادح.. أمسكُ بيد سهام كمن يتشبث بها، تبدو أطرافها باردةً وتغمض عينيها، عندما لمستها ابتسمتْ، فتحتْ عينيها ثم أغلقتهما

ـ سهام.. سهام. سهام!!

ـ .....

****

- 3 -

كانت الأشـــباح البيضاء تتســـربُ إلى روح ســـهام عندمـــا فتحتْ عينيها في المشـــفى الأمريكي، الجدران بيضـــاء، والإضاءة بيضـــاء، ومعطف الدكتـــور جيوفاني أبيض، الســـرير الذي تتمددُ عليه أبيض، والمقاعد التي نجلس عليها أنا وياســـمين بيضاء، بدا الأمر لســـهام كما لو أنها تنزلق من الحياة ببطءٍ كانت تبتســـم للســـقف كما لـــو أنهـــا ترى ما لا نراه.. هي ذات النظرة التي كانت في الـ«سانتا سيسيليا» وذات الابتسامة، أحسستُ بأن الكلام ينســـحبُ من ســـهام شيئًا فشـــيئًا، قام الدكتور جيوفاني وباقي الممرضين باللازم وتركونا أنا وياســـمين بعد أن قالوا إن حالتها استقرتْ، شيء ما فيّ كان يظلم تدريجيًّا لم يشـــعر بـــه الدكتور جيوفاني، ولكننـــي كنتُ أحس به بوضوح، أمســـكتُ يد ســـهام اليمنى كانت مستسلمة لكل الاحتمـــالات ومشـــرعةً لخيارات الســـماء، كل الصلوات بداخلي انطفأتْ عندما قالت بصوتٍ هادئ بأنها لا تحس بأسفل قدميها، أدركْتُ حينها بأنها تنسحبُ بهدوءٍ لتخلف الكارثة.. دموعي كانت أكثر اندفاعًا من أن أحبسها، مدتْ يدها ســـهام، لتمســـحها قبلتها من يدها وشـــممتُ يدها ارتفعتْ رئتاها فجأةً وهبطتْ، أغلقتْ عينيها وبقيتْ يدها معلقة في وجهي وانطفأتْ نهائيًّا. عضتْ ياســـمين على

حقيبتها التي كانت تحتضنها، وتمسكها بأسنانها بشدة، ارتميتُ في صدر سهام ولم أصرخ! ولكن داخلي كان يصرخ في داخلي، كنت أرتجف، وأرتجف.. أسرع الأطباء لكن سهام كانت أسرع في حسم قرارها. ارتمتْ ياسمين في حضني كطفلة أصبحتْ جاهزةً لليتم من جديد، كان إسحاق حينها يحاول أن يخفي حزنه وهو يقف بجانب باب الغرفة، ارتميتُ بحضنه، أنا الآخر لم أستطع أن أقف؛ كان الحزن أثقل من أن أحتمله وأنا أقف على قدميّ فقط، كنتُ أهجس وأتمتم بما لا أذكره الآن، كنتُ أشير لسهام في سريرها، لم يكن الكلام حينها ضروريًّا، كلنا كان يغرق في الدموع السوداء.. بردٌ قارسٌ وقاسٍ كان يتسرب إلى أطرافي.. أخذني الدكتور جيوفاني إلى حديقة المشفى وبقي إسحاق وياسمين لاستخراج أوراق الوفاة والدفن، عيناي كانتا مضرجتان بالأحمر وصدري كان يعلو ويهبط، لم يتحدث معي الدكتور جيوفاني إطلاقًا، ولا أنا تحدثتُ له، تركني في أحد مقاعد الحديقة، وعاد إلى المشفى أحسستُ بالغصن الذي فقد الشجرة التي ابتلعها وحش القدر.. انتهى اليوم ولا أدري كيف انتهى، كان يومًا أثقل من كل السنين التي عشتها، لا يكون الموت صعبًا حين يأتي فجأةً ولكنه يكون أشد فداحةً عندما تشعر أنه قادم وأنت تشعر بالعجز التام لتفاديه أو مقاومته.

ـ 4 ـ

عندمـــا ورطتنـــي الحياة بالكتابـــة ـ كان ذلك منذ وقـــت مبكر ـ لم أكن أعرف أنها ســـتكون أكثر الورطات ألمًا ولذة، لم ينجُ أحدٌ وقع في الكتابة عبر التاريخ منها، أقول وقع لأن الكتابة شَرَكٌ لأن الكتابة فخّ، كنتُ أشاهد سعيدًا وهو يمزق الورقة تلو الورقة، يتصارع مع أشباحه ليـــلاً.. تصرعهُ ويصرعهـــا، كل هذا دون أن يزعجني، لا يمكن لشاعر أن يكون مؤذيًا أبدًا، كان يعرف ذلك جيدًا ولذلـــك لم يحـــدث أبدًا أن أخطأ عليّ، وأزعم أنني كنتُ الصديق المثالي له لولا، أنّ ســـهام حضرتْ بكل أقنعتها ووزعتها علينا أنا.. وهو.. وهي أصبحنا على المسرح دون مخرج! أنا وســـهام من كان يمثل، وكان ســـعيد أنقانا،لم تكـــن الحيـــاة عادلة، ولم تكن مهيأةٍ لي لأن أعيش حياتي بســـلام اعتيادي. إنها حروبي الصغيرة التي وقعت فيها مكرهًا، لم أحمل فيها الســـلاح ولم ألوح بها بغير الحب، هـــل يكون الحـــب غير ممكن عندما يصبـــح فائضًا عن الحد؟ أم يستحيل لكارثة؟ أم أنني كنتُ الشخص الخطأ في هذه الحياة؟ حاولتُ أن أواصل السير إلا أن الطرق كانت ملتوية إلى الحد الذي لا تظهر فيه النهاية واضحة.

لقـــد مضـــى الكثير يا الله.. ألم يعـــد من الممكن

أن أدع حـــدًّا لـــكل هذه التراجيديا التي انتخبتني وحدي لأكون بطلها؟ تتبعتُ من تبقى معي على المسرح إسحاق وياســـمين.. لم يســـتطع إســـحاق أن يتوقف عن الصراخ باســـم وطنه الذي حملهُ بعمق شـــديدٍ داخله، ظل ينفعل ويشتم ويبرر «هؤلاء الملاعين لن يتغيروا إلا بشيءٍ يبيدهم كلهم...» وكنتُ قد حســـمتُ أمري في أن هذا العالم لن يتغير، كل ما فيه ســـيبقى كما هو، الفقير فقيرًا، والغني غنيًا، المظلوم مظلومًا، وإن تمكن ســـيظلم ظالمه، حتى الموجوعـــون في داخلهم وحوشٌ لو خرجتْ من أقفاصها لقضتْ على الكل، أما ياسمين فقد أصبحتْ لوحاتها أكثر ظلامًا وكآبةً، لقد انســـحبتْ منها رغبتها في الحياة كما ظهر ذلك في معرضها الأخير في ميونخ، كل من حضر لمحَ تداخل اللون البني بتدرجاته مع الأزرق الداكن بشكل غريب.. كانتْ ياســـمين تناقش الحاضرين عن لوحاتها، وكنتُ أشاهدها من طرف القاعة لم تعتقد مجيئي، كان شيئًا مبهجًا لها..

ـ «أتعلم يا عمر أقمْتُ هذا المعرض لروح ســـهام، شيءٌ ما كبرُ فيَّ فجأةً يا عمر.. الحياة ملعونة وبنت كلب، هل تعتقد أنني مازلتُ قادرة على أن ألوّنها كما أريد؟».

ـ عليـــك أن تلوحي بألوانك في وجه كل شـــيء يا ياسمين كما فعلتِ دائمًا.

ـ «لا أستطيع أن أعدكَ يا عمر.. تعلم أنني بعيدةٌ تمامًا عن كل شـــيء إلا عن لوحاتي.. أصبحْتُ أشعر بأن لوحاتي ابتعدتْ مني.. إنها ليســـت أنا وهذا إن اســـتمر سيتعبني..».

كانت الجمل تسقط من ياسمين كما تسقط صخورٌ مـــن جبلٍ أوشـــك على الانهيـــار، تركتها وعدتُ إلى روما التـــي تحولتْ حياتـــي فيها من حلم كنت أرجوه دومًا إلى كابوسٍ لعين، كابوس كنتُ بطله الذي وجد نفســـه هكذا في عمق الملهاة.

مر شـــهر الآن على الكارثة ها هو نيســـان بكامل قســـوته يطلُّ الآن أصبحتُ أشعر بثقلي جيدًا، جزءٌ كبيرٌ بداخلي كان قد استسلم للصمْتِ الكبير،

حاولـــتُ الكتابـــة.. منـــذ مدة لم أرســـل للصحيفة شيئًا،كنتُ قد استقرّيتُ على العزلة دون أن أفكر بشأنها، لم يعد يزورني إلا إسحاق بين فترة وأخرى، وجدتُ نفسي فـــي المنطقـــة التي لا يمكن العودة منهـــا أبدًا، ولم أعد أملك تلك الشجاعة التي يمكن لها أن تدفعني إلى الأمام، كنت أشـــعر بأن الحياة جُردتْ من ألوانها، لم يتبقَ ســـوى اللالون! فجأة خطر لي مازن ســـالم لم أحفظ رقمه في هاتفي، ولكني أملك بريده.. فتحتُ حاســـوبي الذي كان ألصقَ الأشـــياء بي فـــي عزلتي الباردة، كانت الرســـالة

واضحــة وفجائيــة، لم تترك للاحتمال فرصة ولا للأمل نافذةً.. كل شيء فيها كان يقولُ إنّ في آخر النفق هاوية..

ـ «أستاذ عمر أنا آسف حاولت أن أخبرك بشتى الطرق ولم أستطع.

رفض أبي أن يصدر عملي وأنا لستُ جاهزًا للخسارات.. ليس مهمًّا أن نبقى في هذه الحياة إن لم نستطع أن نفعل ما نريد.. سامحني» أمسكتُ قلبي بشدة وأغمضتُ عيني كي أدرك أن ما فعله مازن ليس مقطعًا من رواية تراجيدية، موجع أن تقترب من عذابات الضحية.. إنني أشعر بكل عذابات المعذبين في الأرض، وأدرك كم كنا بعيدِين عنهم، نُشِرَ خبر صغير في الصحف اليومية عن انتحار شــابٍ ما.. ولم يبحثوا في قصته، رحل مازن كمــن يرفض تلك الدوائر التــي اعتقلتني في دواماتها.. رحــل كمن عرف كيف يضع الجملة في مكانها، والنقطة في آخر السطر.. رحل وتركني أحصي خساراتي الوطن، أمي، أبي، ســعيد، سهام وأخيرًا عمري الذي قضيته في ملاحقة الأشباح الهاربة. هاتفتُ إسحاق كي يلقاني عند نافورة تريفي، وكانت الفكرة الأشــد ســوادًا تلاحقني أن ألتحق بهم واضعًا النهاية لكل هذه الخسارات، ولكن أريد أن ألتقــي بالمجنــون الذي يحتمــل فرحية معه كل هذه السنين، يخفف عنّا أن نلتقي بمن يشبهوننا.

إســحاق لفظته الحياة مثلي، ولكنه احتفظ برغبته على تلوين كل شيءٍ،

لم يترك نشــرات الأخبــار ولا أخبار بلاده، مازال قــادرًا علــى أن يُفجع بالكوارث وأن يتألم من جديد، أما أنــا فقد فقدتُ القــدرة على الألم أصبحتُ باردًا وثقيلًا جــدًّا لم يتأخــر أحدنا هذه المرة كالعــادة.. رميتُ بدلَ القطعة قطعتين نقديتين في النافورة!! انتبه لي إسحاق مندهشًا..

ـ أراك دفعت بقطعتين هذه المرة!! هل هذا يعني أنك مازلتَ قادرًا على أن تتحدى الحياة؟

ـ بل لم يعد لي ما أخشى منه، أريد أن أنصب لها فخًّا هذه المرة وسأنجح.

أســلمتُ لإســحاق روايــة مازن ســالم وقلــتُ له: «بعد فترة بســيطة عليك أن تدفع بها لناشــرٍ محترم». قضيتُ ســاعتي الأخيرة مع إسحاق، ولم أخبره بقراري، احتضنتهُ لأنني لا أعرف كيف أشكر المقربين مني سوى باحتضانهم.. أمي كانت تقول لي: «احساســكَ المرهف ســيضعك في مآزق كبيرة» ها أنا الآن يا أمي قررتُ أن أنهي هذه المآزق وأترك الحياة دائرة على نفسها. تركتُ إســحاق وذهبتُ إلى شــقتي بعد أن اختفتْ شمس روما.

أشـــعلت سيجارتي الأخيرة التي أدخنها الآن وأنا أكتبُ.. لقد كتبتُ لكي أنتقم من الحياة تأكدتُ من توافر حبوب النـــوم الأخير.. أريد أن أضـــع أصابعي في عنق الذاكرة وأنزعهـــا، وأنام، أنام إلى الأبد. الآن لن يأتي الموت لأنه يريد أن يأتي ولن يباغتني، ســـأدعوه بنفســـي، سأدعوه لأنني أريدهُ، ســـأجعلهُ وجهًـــا لوجه أمام الحياة.. أغلقتُ النافذة تمامًا وأطفأتُ ســـيجارتي تناولتُ كمًّا كبيرًا من الحبوب دفعة واحدةً لأسدلَ الستار على حياتي!! سأنام الآن وألتحق بهم.. بسهام، سعيد، أمي، أبي، مازن.. أيتها الأوجه الهاربة إنني قادمٌ.. قادمٌ.. قاااااادم.

ملاحظة..

«وجـدتُ هـذه الأوراق في شـقة الأسـتاذ عمر أثناء مـا كانت الشـرطة الإيطالية تقـوم بالتحقيقات لمعرفة أسباب وفاته».

إسحاق أويس..